دراسة تعريفية لمخطوط دستور الإعلام بمعارف الأعلام لأبي عبد الله محمد بن عمر بن عَزَم التونسي المكي (ت891هـ/1486م) وما أدرج فيه من تراجم

صالحي الخير رزقي قرماش

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة تعريفية تحليلية لمخطوط " دستور الإعلام بمعارف الأعلام " لمؤلفه الشيخ المؤرخ " محمد بن عمر بن عَزَم التونسي المكي " (ت891هـ/1486م) حيث تطرق الباحث إلى وصفه وتعديد نسخه وتحقيق عنوانه ونسبته للمؤلف مع بيان أهميته وكذا منهج المؤلف في كتابه وأهم المصادر التي اعتمدها لإخراجه ، كما وضع الباحث ترجمة شاملة وافية للمؤلف وكذا المؤرخين الأربعة الذين ساهموا على مدى قرنين من الزمن في إثرائه والعناية به حتى أخرجوه في حلته الحالية الزاهية . ثم تطرق البحث في نهايته إلى دراسة شاملة للأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لمكة المكرمة في القرن التاسع الهجري ومدى إسهام المجاورين المغاربة في الحياة المكية عامة والعلمية خاصة .

An Introductory Study of the Media Constitution Manuscript by Tunisian Historian Abu-Abdullah Mohamed bin Omar bin Azm al-Makki (891 AH / 1486 AD)

Salehi el kahar Rizki Qurmash

Abstract

This research deals with the study of introductory analytical manuscript of " the Dastor al alam bamareft al aelam " for Mohammed bin Omar bin azem , Tunisian Mecca" (T. 891 AH / 1486 AD), where touched researcher described and cataloging copy and achieve address, representing the author with an indication of its importance as well as the approach to copyright in the book, and the most important sources adopted to remove it, the researcher also developed a comprehensive and thorough translation of the author, as well as the four historians who have contributed over the centuries in enriching it and care for it until they cast him in the suit current brightly, at the end of a comprehensive study of the conditions of political, social, cultural and economic Mecca in the ninth century and the extent of the contribution of the neighboring Moroccan Meccan life in general, and especially scientific.

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يَعدِلون ، والصلاة والسلام على سيّدنا ونبينا محمد ؛ سيّد الأبرار ، والشفيع المختار ، وعلى آله الأطهار ، وصحبه الأحبار ، ومن على خُطاهم اقتفى تلك الآثار ، وسلّم تسليمًا كثيرًا ، وبعد :

فإن تحقيق التراث وإخراج المخطوطات من ظلمة الأيام الخالية إلى نور الأيام الحالية لمن أعظم الأعمال التي يجب أن يتطلّع إليها الباحث المسلم ، لاسيما أهل الاختصاص منهم ، فالمخطوطات مهما كانت قيمتها العلمية ، لا بدّ وأن ترى النور ، ويُقرأ ما بجوفها من سطور ، فربّما استملح الظريف نُكتها ، واستنتج اللبيب عِبرها . لهذا وجب الاهتمام بهذا التراث العظيم لأجدادنا الكرام، خاصة في مجالي التاريخ وتراجم الرجال ، حيث المعلومات في هاذين الميدانين لا تقبل الاجتهاد ، بل هي حقائق ناصعة تدلّ على واقع الحال. ولا عجب أن اختصّت الأمة المحمدية دون غيرها من أمم الأرض ، بعلم اسمه علم الإسناد ، بل واعتبرت الإسناد واجبٌ ديني ، فكانت بالتالي العناية برجاله وتراجمهم ، وبيان أحوالهم وتواريخ ولادتهم ووفياتهم ، وكذا درجات منازلهم من الجرح والتعديل ، من أوجب الواجبات ، حيث تتابعت المؤلفات في مجال التراجم قرنًا بعد قرن، فبقيت سلسلة الإسناد متصلة إلى يوم التناد والميعاد .

من أجل ذلك ؛ نشير إلى أن مخطوط " دستور الإعلام بمعارف الأعلام " هو مخطوط قيّم في بابه ، يُترجم في عبارات مختصرة كافية ودقيقة لأعلام الأمة الإسلامية قبل الإسلام وبعده على مدى قرون من الزمان ، بل وزاد من أهميته أنه اشترك في إخراجه منذ وَضْعِهِ الأول إلى أن أورق وأينع وأثمر في حلّته التي بين الأيدي ، خمسٌ من المؤرخين الأفذاذ الذين يُشار إليهم بالبنان في هذا الميدان.

وقد وصف المؤرخ المحقق خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام[1] هذا المخطوط خير وصفٍ بقوله : " دستور الإعلام : جديد في أسلوبه ، جمع فيه على صغر حجمه تراجم أشهر الرجال، ولا تتجاوز الترجمة ثلاثة أسطر – بل وتتجاوزها في بعض التراجم غير القليلة إلى ستّة أسطر – وجعله على خمسة أقسام ، ورتب كل قسم على الحروف ، فالقسم الأول : فيمن اشتهر باسمه ؛ كمالك والجنيد والحجاج ، والثاني : فيمن اشتهر بكنيته ؛ كأبي الأسود وأبي داود وأبي تمام ، والثالث : فيمن اشتهر بنسب أو سبب أو لقب ؛ كالجوهري والحريري وقطرب وذي النون وذي الرمة ، والرابع : فيمن اشتهر بابن ؛ كابن عباس وابن العربي وابن دريد ، والخامس : فيمن اشتهر بصاحب؛ كصاحب الكتاب الفلاني أو البلدة الفلانية .

وقد أرّخ ابن عَزَم فيه لكثير من الأعلام المعاصرين له من المشارقة والمغاربة والأندلسيين ، ومن أهل جدّة وأهل الحرمين الشريفين خاصة ، لاسيما من الوافدين عليهما ممّن يصفهم غالبًا بـــ " أصحابنا " ، كما أرّخ لمعاصريه من شيوخه وتلاميذه .

ومن الأمثلة عن تأريخه لعَلَم من الأعلام ؛ قوله في لقب "الأزرقي" : " الأزرقي إلى جده الأزرق صاحب " تاريخ مكة " محمد بن عبد الله بن أحمد . سنة 204هـ (أي الوفاة) ، وجده أحمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق بن عمر بن الحارث بن أبي شمر الغساني المكي ، روى عن سفيان بن عيينة وداود بن عبد الرحمن العطار ، وروى عنه حفيده سنة 212هـ "(أي وفاته) .

وأما من حيث تحقيق عنوان المخطوط ونسبته للمؤلف فقد دلّت عليه النسخ المحفوظة في المكتبات العلمية ، وهي نُسخ ترجع إلى عهد المؤرخ الجينيني أحد أبرز من أثرى هذا المخطوط وأكمله ، وقد صرّح الجينيني (ت1108هـ/1696م) باسم المؤلف وعنوان كتابه ، بل صرّح بذلك قبله القطب النهروالي (ت990هـ/1581م) وهو أول من بدأ بخدمة " دستور الإعلام " بالزيادة والإثراء .

كذلك ؛ فقد أكد ذلك جميع من ترجم للمؤلف رحمه الله تعالى من المعاصرين ؛ كحاجي خليفة في كشفه [2] وإسماعيل باشا في الهدية [3] وبروكلمان في تاريخه [4] وسركيس في معجم المطبوعات [5] والزركلي في أعلامه [6] وكحالة في معجمه [7] .

وبالنسبة لأهمية هذه المخطوط ؛ فإني لما وقفتُ عليه وجدته كتابًا يحتوي قيمة علمية وتاريخية قيّمة ، باعتباره معجمًا شاملاً يُغني الطالب والباحث ، حتى أخرجه آخر من ذيّل عليه وهو العلاّمة المؤرخ إبراهيم بن سليمان الجينيني[8] ، حيث أضاف[9] الجينيني للدستور تراجم كثيرة[10] زادته إثراءً ، هذا فضلاً على إكماله لبعض التراجم الأصلية التي رأى أنها تحتاج إلى زيادة بيان حتى تعمّ الفائدة ، وليس هذا فحسب ، بل لقد أثرى المخطوط – كما سلف ذكره – ثلاثة من كبار أهل العلم المؤرخين هم على التوالي :

1- العلامة المؤرخ قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي[11] . حيث رمز الجينيني لإضافاته وتعليقاته بحرف " ق " . وقد نصح النهروالي في مقدمة تعليقاته ، طالبَ العلم أن يطلع على الكتاب لأنه " كتاب نافعٌ جدّا في بابه " ، ثم حثّ أهل العلم المتمرسين في علم التراجم والتاريخ أن يزيدوا فيه ما وقفوا عليه من تراجم . وهو ما حدث من بعده فعلاً .

2- الأديب زين الدين بن محمد بن أحمد البصروي[12] الشافعي الدمشقي . ورمز الجينيني لإضافاته بحرف " ف " .

3- النقيب إبراهيم بن محمد الحسني المعروف بابن حمزة [13] ؛ نقيب الأشراف بدمشق ، ورمز الجينيني لإضافاته بحرف " هب " .

ولعلّ مما يزيد من أهمية هذا المخطوط والابتكار في وضعه وصنعته ؛ أن سار المؤرخ الكبير أبو المعالي ابن الغزي (ت1167هـ/1753م) ، في تأليف كتابه الشهير " ديوان الإسلام " على منوال " دستور الإعلام " ، وقد صرّح بذلك في مقدمة ديوانه بقوله : " هذا أنموذج لطيف ، أذكر فيه المشاهير من أهل كل فن بحسب ما اطلعت عليه ، ممن كان في هذه الدولة الإسلامية وكان له أثر في

الإسلام من العلماء أرباب التصانيف أو الأدباء والشعراء والندماء ، ومن له شهرة ببناء مدرسة أو جامع أو مسجد في بلدتنا دمشق الشام ... " ، إلى أن قال : " ثم أذكر نسبه وبلده وعام وفاته مرقوماً بالحساب الهندي إن وقفت على عام وفاته ، .... ، وقد قسمت كل حرف على خمسة فصول ، ... ، وقد سبقني إلى التصنيف في هذا الغرض ، العلامة الشيخ شمس الدين محمد بن عزم نزيل مكة ، وحذوت حذوه بهذا التاريخ "[14] .

ولا أدلّ على أهمية " دستور الإعلام " من أن مؤلفه هو ابن عَزَم[15] الذي له إلمام واسع بفن التراجم ، كما سلف ذكره في ترجمته . وهذا ابن العماد في شذرات الذهب[16] ، نقل عن الإمام الموسوعي جلال الدين السيوطي أنه قال في ترجمة قاضي القضاة البرهان السنجاري : أخبرني صاحبنا المؤرخ شمس الدين ابن عَزَم بمكة أن وفاته (أي السنجاري) سنة أربع وثمانين أو ست وثمانين ، الشك مني . وهذا يدلّ على ما كان يتمتع به ابن عَزَم رحمه الله تعالى من ثقافة موسوعية في مجال التأريخ والترجمة .

ويزداد المخطوط أهمية إذا علمنا أن المؤرخ الحافظ السخاوي كان ينعت دستور ابن عَزَم " بالمعجم "، وكان في ضوئه اللامع كثيرًا ما يذكر تاريخ وفيات أعلام – لاسيما المغاربة منهم – ممّا أرّخ لوفاتهم ابن عَزَم ، بل ويُقدّم كلام ابن عَزَم عند الاختلاف في سنة الوفاة ، وكان كثيرًا ما يذكره بقوله : أرّخه ابن عَزَم ، أو : قاله ابن عَزَم ، أو : وسمّاه ابن عَزَم ، أو : نسبه ابن عَزَم، أو : هكذا ذكره ابن عَزَم ، وغيرها من العبارات[17] .

ومما يؤكّد الدلالة على هذه الأهمية ؛ أن العديد ممّن ألف أو عرّج على علم التراجم ، وكتبه ، استشهد بما أورده ابن عَزَم في دستور ، ومن أمثلة ذلك ؛ يوسف سركيس في معجم المطبوعات [18] في تثبيت سنة وفاة أحد الأعلام المترجم لهم ، وهو ابن غرس . كما استشهد به الزركلي في أعلامه[19] ، في ترجمته لكاتِب الإنشاء تاج الدين السعدي (ت756هـ/1354م) .كما استخدمه ورجع إلى مخطوطته محقق كتاب " سير أعلام النبلاء " الشيخ المحدث شعيب الأرناؤوط[20] .

وبالنسبة لمنهج المؤلف ابن عَزَم في كتابه وأهم مصادره الذي اعتمد في إخراجه ؛ نجد المنهج الذي سار عليه المؤلف موجزًا في :

– اختصر المؤلف كل ترجمة من تراجمه في سطرين بالمتوسط وذلك لأنه أشار في المقدمة إلى أن كتابه هذا هو " مجموع مختصر في الفن التاريخي جعلته مدخلاً لغيره من الكتب المطولات ".كما نبّه إلى عدم الاحاطة والكمال وإنما جَمَع وقيّد "بما سمح به الوقت".

– أطال المؤلف في بعض التراجم القليلة إلى ما يزيد على ستة أسطر ، كما فعل في ترجمة مالك بن أنس وترجمة عليّ بن إسماعيل الأبياري (12 سطر) ، وغيرهما ،و كان المؤلف إذا شكّ في تارخ وفاة علَم ما ترك المكان مبيّضًا .

– كان المؤلف يصرّح في مواضع نادرة بأسماء المؤلفين الذين يرجع إلى كتبهم ، كما فعل مع الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي (ت842هـ/1438م) في كتابه "

توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم " ، فقد أكثر من النقل منه كثيرًا لكن لم يصرّح باسمه إلا قليلاً .

– كان المؤلف يستدرك أحيانًا تحت الترجمة الرئيسية تراجم أخرى لكن في غير موضعها ؛ كما فعل مثلاً في ترجمة " يحيى بن يحيى بن بكير " اللوحة [24ب] حيث أورد ترجمتي " يحيى بن عبد الله بن بكير " و" الحسين بن أحمد بن بكير " تحت ترجمة " الحسن بن بَلّيمة " اللوحة [25أ] ، وهذا خطأ في الترتيب الأبجدي . وقد أعدتُ الترجمتين إلى موضعهما الصحيح من الترتيب الأبجدي .

وأما من حيث المصادر التي اعتُمدت – مع أن المؤلف والآخرين من بعده – لم يصرّحوا بأسمائها وأسماء أصحابها – في الغالب – وربما هذا لالتزامهم الاختصار وعدم الإطالة ، والتركيز على المعلومة التي تخدم الترجمة ، غير أننا إذا فتّشنا بين الأسطر ومن خلال مقارنة معلومات الكتاب بمعلومات ما بين الأيدي من مصادر ، نجد أن المؤلف – والآخرين – قد اعتمدوا في الغالب على :

1– اعتمد ابن عزم في بعض التراجم الحجازية خاصة على معاصره وبلديّه تقي الدين الفاسي (ت832هـ/1428م) في كتابه " ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد " . وكان اعتماده لتمييز الأنساب وضبطها على كتاب " الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب " لابن ماكولا (ت475هـ/1082م) ، وكتاب " اللباب في تهذيب الأنساب " لابن الأثير (ت630هـ/1232م) . وأما كتاب " فتح الباب في الكنى والألقاب " للحافظ محمد بن مندة (ت395هـ/1004م) ، وكتاب " نزهة الألباب في الألقاب " لشيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت852هـ/1449م) فاعتماد المؤلف عليهما في تحديد وتمييز الكنى والألقاب ، لاسيما الكتاب الثاني ، وكان ابن عزَم يعتمد على هذين الكتابين خاصة في أبواب الكنى من هذا المخطوط. غير أنه في تتبّعه للألقاب المتسلسلة أبجدية فالظاهر أنه كان يهتدي إليها عن طريق كتاب " الوافي بالوفيات " للصفدي (ت764هـ/1362م) . وأما في تراجم القراء فقد اعتمد خاصة على كتاب " معرفة القراء الكبار " للحافظ الذهبي ، بينما كان يأخذ من كتابه الآخر " العبر في خبر من غبر " تراجم متنوعة غير محددة بصفة معينة . وعند ترجمته لعلماء بغداد وأعيانها فكان غالبًا ما يعتمد على كتاب " تاريخ بغداد " للخطيب . وأما في ترجمته لأعيان وعلماء المالكية فيعتمد على كتاب " الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب " لابن فرحون المدني (ت799هـ/1397م) ، ولترجمة أعيان الشافعية كان ينقل خاصة من كتاب " طبقات الشافعية " لابن قاضي شهبة (ت851هـ/1447م) .

2– اعتمد الجينيني خاصة على كتاب " شذرات الذهب في أخبار من ذهب " لابن العماد (ت1089هـ/1678م) في ذكر بعض التراجم المطولة ، وهو فعله كذلك بالنسبة لكتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (ت902هـ/1496م) لكن في تراجم وفيات القرن التاسع الهجري . كما اعتمد في تراجم القراء على كتاب " غاية النهاية في طبقات القراء " لابن الجزري (ت833هـ/1429م) (كترجمة الصنبري اليمني) . أما في تراجم أهل القرن العاشر الهجري فكان يعتمد خاصة

على كتاب " الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة " ، وكان يأخذ تراجم النحويين من كتاب " بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة " للحافظ السيوطي (911هـ/1505م).

3- وأما المؤرخ قطب الدين النهروالي الذي كانت إضافاته قليلة مقارنة بإضافات الجينيني ، فقد اعتمد في الغالب على كتاب " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت852هـ/1448م) .

وأما بالنسبة لنسخ المخطوط ؛ فإنه يمكن الاعتماد على نسخة خُدابخش الهندية المحفوظة بمعهد البحوث العلمية وتحقيق التراث بمكة المكرمة برقم 2276 ، كنسخة رئيسية للتحقيق ؛ والسبب في اتخاذها كذلك هو أنها نسخة مكتملة دقيقة الضبط يغلب الظن على أنها منقولة عن نسخة العلامة الجينيني[21] أحد أبرز من أثرى هذا المخطوط وأكمله .

ونسخة خدابخش هذه مكتوبة بخط معتاد ، منظمة ، مقروءة في غالبها ، مدادها أسود وبدايات الاسم (أو اللقب) بنفس المداد لكن بخط أعرض . وقد نُسخت في رمضان سنة 1123هـ/1711م ، أي بعد 15 سنة من وفاة المؤرخ الجينيني وسنتين من وفاة المؤرخ ابن حمزة ، وهما مَن شاركا في إثراء وإخراج هذا الكتاب . وناسخها هو " محمد بن عبد اللطيف الحنبلي " ، وهو ناسخ مغمور ، إلا أن انعدام الأخطاء الإملائية والنحوية يؤكد على أنه كان على جانب كبير من العلم والاطلاع .

وتقع هذه النسخة في 159 لوحة ، (بعد إلغاء لوحتين مكرّرتين) ، ومسطرتها 29 سطر ، كل سطر به من 9 إلى 11 كلمة . في أعلى اللوحة الأولى من جهة اليسار [1 ب] عبارة مطموسة تبيّن تاريخ من امتلكها وهي كالتالي : [في ملكية ..... السيّد زين العابدين القاضي بدمشق ..... وعفى عنه] . وتحتها ترجمة موجزة في أربعة أسطر للمؤلف ابن عزَم أوردها القطب النهروالي نقلاً عن المؤرخ السخاوي في ضوئه اللامع ، وتحت هذه الترجمة نص[22] من سبعة أسطر جاء فيه : [العلامة السيّد حمزة بن أحمد بن عليّ بن محمد بن عليّ الحسيني[23] الشافعي الدمشقي له كتاب سماه " المنتهى في وفيات أولي النهى " على أسلوبه ، وهو على شكل أقسام ؛ القسم الأول في ذكر من توفي من مشاهير الصحابة وغيرهم ، والثاني في ذكر من اشتهر باسم والثالث والسادس في ذكر من اشتهر بابن فلان . وهو أخصر من هذا الكتاب .

وينتهي نص تراجم المخطوط باللوحة [158 ب] وفي آخرها وردت العبارة التالية : [وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة نهار الجمعة يوم 25 خلت من رمضان المعظم سنة 1123هـ على يدي أفقر الورى محمد بن عبد اللطيف الحنبلي عفى الله عنه ، وصلّى الله على سيّدنا وحبيبنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم] .

ولأجل المقابلة والمقارنة والتصحيح عند تحقيق هذا المخطوط ، هناك نسختان يمكن الاعتماد عليهما في ذلك : نسخة مكتبة الحرم المكي الشريف

المحفوظة برقم 3484 تراجم ، وهي نسخة خطَّهَا مجهول سنة 1171هـ/1757م نقلاً عن نسخة كُتبت في دمشق سنة 1091هـ/1680م ، الغالب أنها بخط العلاّمة المؤرخ الجينيني ، وهو آخر المؤلفين الثلاثة الذين توارثوا الكتاب وتعاقبوا على الزيادة عليه والتنقيح . ويقع هذا المخطوط في 162 لوحة ، بمقاس 20سم × 15سم ، مكتوب بخط النسخ المملوكي المتوسط الوضوح ، خُطّ النص الأساسي بالحبر الأسود بينما خُطّ عنوان المخطوط وكذا جميع الفواصل والأسماء الأولى لكلّ ترجمة مع سنة الوفاة بالمداد الأحمر . ومتوسط عدد الأسطر في كلّ لوحة 21 سطرًا ، وفي بعض اللوحات 22 سطرًا ، وفي كلّ سطر 9 كلمات تقريبًا . وتبدأ اللوحة الأولى [1 أ] بالعبارة التالية : " بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه ثقتي . الحمد لله الذي تفرّد بما ليس لغيره العزة والغناء ، وتوحّد بالديمومة والبقاء ، .... " ، وخُتم المخطوط بالعبارة التالية : " نجز منها كاتبها الأصلي نهار الأحد سابع ربيع الأول من شهور سنة إحدى وتسعين وألف على يد الفقير إبراهيم بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الحنفي بدمشق المحروسة ، وقد وقع الفراغ من تحرير هذه النسخة في شهر شعبان المعظم سنة إحدى وسبعين ومائة وألف " .

وأما النسخة الثانية فهي نسخة مكتبة وليّ الدين جار الله بتركيا المحفوظة برقم 1605 . يقع هذا المخطوط في 220 لوحة ، بمقاس 21سم × 15سم ، مكتوبة بخط التعليق الفارسي وبالحبر الأسود ، ومتوسط عدد الأسطر في كلّ لوحة 21 سطرًا ، وفي كلّ سطر سبع كلمات تقريبًا ، مع الإشارة إلى أن بعض الأسطر غير مكتملة . وقد كتبت على يدي الناسخ " أبو عبد الله وليّ الدين جار الله " سنة 1140هـ/1727م نقلاً عن نسخة للمؤرخ الجينيني . وسبب كثرة لوحاتها (220) هو أن بعض اللوحات صُوّرت بالآلة الضوئية من جهة واحدة فقط ، كما أن هناك تكرار لبعض اللوحات . وتبدأ اللوحة الأولى [1 أ] (وهي مطموسة في جانبها الأيسر طمسًا كاملاً) بالعبارة التالية : " هذا الكتاب دستور الاعلام بمعارف الاعلام لشيخنا إبراهيم الجينيني الدمشقي ابن الشيخ خير الدين الرملي ، .... " ، وخُتم المخطوط باللوحة [220 ب] بالعبارة التالية : "نجز منها كاتبها الأصلي نهار الأحد سابع ربيع الأول من شهور سنة إحدى وتسعين وألف على يد الفقير إبراهيم بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الحنفي بدمشق المحروسة ، وكتب لنفسه ولمن شاء الله تعالى من بعده : وقد زدتُ فيه ما له (هـ) صورة، وقد زدت في أصل التراجم ما كان مبيضًا في الأصل وكذلك ما بعد قول : وكان ، لتكون ترجمة مستقلة يعلم منها بعض حال المذكور إلى أن يقف على ترجمته في التواريخ المطولة ، فرحم الله من بدأبذلك ومن تبعه ، ونفعني به ورحمني ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا " . ثم دعاء في ثلاثة أسطر .

وفي الأخير نشير إلى أن " دستور الإعلام " له عدّة نسخ أخرى متغايرة – وبعضها مصورٌ عن البعض الآخر – محفوظةٌ بمكتبات العالم ، منها تلك النسخ الثلاث المذكورة سابقًا ، ومنها نسخة مكتبة الدولة ببرلين بألمانيا برقم 9876

وبرقم 9877 . ونسخة معهد المخطوطات العربية بالكويت برقم 1317 (مصورة عن نسخة محفوظة بمكتبة الأحقاف مجموعة الحسيني رقم 23) ، وأربع نُسخ بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة بمصر برقم 1045 وبرقم 660 ، وهناك نسخة مكتبة المصورات الفيلمية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، برقم 1554 – 7640/2 ، ونسخة مكتبة الأحقاف في تريم بحضرموت برقم 1091 ، ونسخة بمكتبة آق شهر بتركيا برقم 430 .

وبعد أن عرّفنا بالمخطوط وأهميته فإنه من الواجب التعريف الشامل بصاحبه والاطلاع الكامل على أحوال عصره من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بمكة ، وكذا وأثر المغاربة المجاورين (باعتبار المؤلف منهم) في الحياة العلمية المكية.

أولاً : التعريف بالمؤلف :

اسمه ونسبه ومولده :

ابن عَـزَم[24] (816هـ – 891هـ/1414م – 1486م) : بـفتح العين والزاي[25] ؛ هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن عَـزَم التميمي الداري[26] المالكي التونسي[27] ثم المكي . ولد بتونـس في يوم 16 شـوال من سـنة 816هـ/1414م[28] .

ولم تذكر المصادر التي بين الأيدي مزيد تفصيل عن أسرته بتونس ، وأما أسرته التي أنشأها بمكة خلال مجاورته بها لأزيد من أربعين سنة ؛ فقد ذكر النجم ابن فهد – في معرض ترجمته للشيخ منصور بن حسن الكازروني (ت860هـ/1455م) – أن الأخير "أجاز له ولأولاده الخمسة"[29] . وذكر كذلك أنه كان له ولدًا نجيبًا اسمه محمد ولقبه محي الدين وكنيته أبو زرعة[30] ، وكان المؤلف قد اعتنى بابنه هذا في تعليمه حيث أسمعه وأجاز له وأقرأه القرآن وكتبًا، واشتغل وتميّز ورحل إلى القاهرة فأخذ عن علمائها ومنهم الحافظ السخاوي ، ولما رجع إلى مكة لم يلبث أن مات سنة 884هـ/1479م ، ففجع أبوه لفقده أيما فاجعة لاسيما وأنه كان يعدّه ليخلفه في مجال العلم والفضل ، فقد كان يصفه في تراجمه بأنه " الفقيه العالم المجاز بالتدريس والافتاء "[31] . ثم بعد أشهر من مصيبته هذه ، فُجع بوفاة زوجته " فاطمة بنت عبد الله بن محمد القرشي " وذلك في جمادى الأولى من سنة 885هـ/1480م[32] . غير أن فاجعته الثالثة بابنته المتزوجة بوادي نخلة بضواحي مكة كانت – ولحسن الحظ – بعد وفاته هو نفسه بأشهر ، حيث توفيت ابنته " أم كلثوم " في جمادى الأولى سنة 892هـ/1486م وكانت حاملاً من زوجها محمد بن أحمد الرصافي الغرناطي نزيل مكة ، وكان يومها بوادي نخلة مع أهله للتصيّف[33]، وأما والد المؤلف فقد انفرد ابن عزَم في دستوره بالترجمة المختصرة لوالده فقال : " إمام أهل الحساب والمساحة والنجوم وغيرهم، أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد التميمي التونسي ، توفي سنة 846هـ " .

نشأته وطلبه للعلم :

نشأ رحمه الله بتونس مسقط رأسه ، وبها حفظ القرآن الكريم ورتّله بقراءة ورش على مؤدبه مقرئ تونس أبي القسم ابن الحاجة[34] ، وبعضه على غيره ، كما أخذ القراءات العشر بقراءة أخيه ، وسمع معظم منظومة الشاطبية في القراءات ، وعرض بعضها على مشايخ بلده . ثم درس مجموعة من أمهات متون النحو والفقه المالكي ، كالأجرومية في النحو وأرجوزة الولدان المعروفة بالقرطبية[35] وقطعة صالحة من رسالة أبي زيد القيرواني[36] في الفقه المالكي .

ثم رحل رحلته الخارجية لطلب العلم في رجب سنة 837هـ/1433م ، فقدم الإسكندرية، فأخذ عن مشايخها كعمر البسلقوني وغيره ، ثم توجه إلى مكة عن طريق البحر فوصلها أول سنة 840هـ/1436م ، فحجّ وتوجه منها إلى المدينة المنورة ، فجاور بها أشهر وسمع خلالها من الشخ جمال الدين محمد الكازروني ، ثم غادرها إلى القاهرة ، فلبث فيها بعض الوقت ثم عاد إلى مكة سنة 842هـ/1438م ، فأقام بها بقية حياته التي زادت عن أربعين سنة ، إلاّ أنه كان يتردّد خلالها على القاهرة والبلاد الشامية لطلب العلم ثم لجلب الكتب ولوازم التجليد والكتابة للتجارة بها . حيث أخذ خلالها بساحل جدة على الشيخ موفق الدين عليّ الأبيّ ، ثم سمع بالقاهرة سنة 847هـ/1443م من الحافظ ابن حجر العسقلاني مسلسلات الحديث ومجلسًا من صحيح مسلم وكتب عنه مجالس من أماليه[37] ؛ وتوجه بعد سنتين من القاهرة إلى البلاد الشامية حيث زار بيت المقدس ثم رجع إلى القاهرة ومنها إلى مكة .

وبعد هذه الرحلة الأخيرة إلى القاهرة عزم المؤلف رحمه الله على الإقامة الدائمة بمكة ، واستمرّ بها في طلب العلم ، حيث سمع بها على مشايخها والقادمين إليها ، وأكثر عن الشيخ أبي الفتح محمد المراغي ، كما لازم الشيخ محيى الدين عبد القادر المالكي في اللغة العربية وغيرها وانتفع به ، كما لازم الشيخ نجم الدين عمر ابن فهد وتخرّج عليه في كتابة الطباق[38] ، كما سمع من المؤرخ السخاوي بمكة والقاهرة .

وكان بالموازاة مع طلب العلم ، يتتبّع شيوخ الرواية وصار له في ذلك نوع إلمام ، مع اعتناء بتقييد بعض الوفيات وتتبع لترتيب من يراه في الاستدعاءات[39] ونحوها . وسافر من مكة غير مرة إلى القاهرة للسماع من مشايخها والتكسّب في تجارة الكتب[40]. شيوخه وتلاميذه وعقيدته :

تتلمذ المؤلف رحمه الله على جُملة من علماء مكة والقاهرة ، ذكر بعضهم السيوطي ضمن ترجمة المؤلف، وأورد بعضهم الآخر المؤلف نفسه ضمن هذا المخطوط مصدرًا لترجمة كلّ منهم بكلمة " شيخنا " ، وهم فيما يلي :

– أبو القاسم بن أحمد بن مسعود بن غالب بن الحاجة (ت سنة بضع وثلاثين وثمانمائة)[41]: قال السخاوي : " ووصفه ابن عزَم بشيخنا ". والغالب أنه هو مؤدبه ومقرؤه القرآن الكريم .

– سراج الدين أبو عليّ عمر بن يوسف بن عبد الله البسلقوني القبائلي السكندراني (ت842هـ/1438م)[42] : كان عالماً ومصنفًا في أنواع من العلوم ؛ له منظومة

في الفقه سمّاها " الجوهرة الثمينة في مذهب عالم المدينة " .
– القاضي جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد الكازروني المدني (ت843هـ/1439م) [43] : قاضي المدينة وخطيبها .
– الشيخ فخر الدين عثمان بن محمد بن وجيه الشيشيني المصري (ت بعد سنة 844هـ/1440م)[44] : لم يذكره المؤلف ضمن شيوخه في" دستور الاعلام "، لكن السخاوي قال:" رأيت ابن عزم أرّخ وفاته سنة اثنتين وأربعين ووصفه بشيخنا" .
– الحافظ أبو الفضل أحمد بن عليّ بن محمد بن حجر العسقلاني الأصل المصري (ت852هـ/1448م) : محدث الإسلام في عصره ، وهو غنيّ عن التعريف .
– نور الدين أبو الحسن عليّ بن محمد بن أحمد التونسي الصفاقسي الأصل المكي المعروف بابن الصباغ (ت855هـ/1451م)[45]: وهو شيخ السخاوي كذلك ، إلا أن السخاوي قدح فيه ونسبه بعضهم إلى التشيّع بسبب مؤلفاته في هذا المجال .
– الشيخ شرف الدين أبو القاسم بن عليّ بن محمد بن عليّ بن زبيدة الزبيدي اليماني الشافعي ، المعروف بالشرف زبيدة (ت858هـ/1454م)[46] : كان ماهرًا في الفقه والنحو واللغة والصرف ، ينظم الشعر . أقام بمكة لما ضاق حاله بعدن يُدرّس وينسخ بالأجرة إلى أن مات .
– الشيخ أبو الفتح شرف الدين محمد بن أبي بكر بن الحسين القرشي المراغي المصري (ت859هـ/1455م)[47] : درّس في اليمن بمواضع ، كما درّس في المدينة النبوية وبمكة ، وحدّث بأمهات الكتب وغيرها .
– الشيخ موفق الدين أبو الحسن عليّ بن إبراهيم بن عليّ اليماني المكي الشافعي (ت859هـ/1455م)[48] : المحدث المسند الرحلة. كان إمامًا مفننًا وأديباً بارعًا .
– الشيخ محمد بن سعيد بن محمد بن سعيد الأزموري (أو الزموري) النامردي المغربي، المعروف بابن سارة (ت860هـ/1455م)[49] : كان أحد علماء المغاربة المجاورين بمكة ، وشيخ رباط الموفق الشهير لمدة عشرين سنة .
– الشيخ أبو عليّ زين الدين عبد الرحيم بن إبراهيم بن محمد الأميوطي المصري الأصل المكي الشافعي (ت867هـ/1462م)[50] : مسند الأقطار الحجازية ، إلا أنه كان قليل التدريس والتصنيف.
– المحدث تقي الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن الشُمُنّي الحنفي الاسكندري القسنطيني الأصل (ت873هـ/1468م)[51] : من بني تميم الداري قوم تلميذه وبلديّه ابن عَزَم. كان علامة مفسرًا أصوليًا نحويًا ، وكان إمام النحاة في زمانه وشيخ العلماء في أوانه . طُلب سنة 868هـ/1463م لقضاء الحنفية بالقاهرة فامتنع .
– الشيخ المؤرخ نجم الدين عمر بن محمد بن فهد القرشي (ت885هـ/1480م)[52] : كان من بيت علم شهير بمكة . له مؤلفات أشهرها كتاب " إتحاف الورى بأخبار أم القرى " .
– القاضي محيي الدين عبد القادر بن أحمد بن محمد الدميري المصري المالكي ، المعروف بابن تقيّ (ت895هـ/1475م) : شيخ الفقه المالكي بالمدرسة الشيخونية

بالقاهرة ، وقد جاور بمكة مرتّين[53].

– المؤرخ العلامة أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السّخاوي المصري (ت902هـ/1496م)[54] : كان ابن عَزَم من أصحاب الحافظ السخاوي ومن مرافقيه في طلب العلم بالقاهرة ومكة ، كما أنه تتلمذ عليه بالقاهرة ، حيث يقول السخاوي : سمع في القاهرة أيضًا بقراءتي واستمد مني كثيراً ، ووصفني بشيخنا العلامة حافظ العصر ، وبالغ في غير ذلك .

– محمد بن عبد الرحمن بن حسن الرعيني الأندلسي ثم الطرابلسي ، المعروف بالحطّاب (ت بعد 934هـ/1527م)[55] : وهو صهر المؤلف ابن عَزَم وزوج ابنته ، كما هو شيخ المؤرخ العز ابن المؤرخ النجم ابن فهد . كان ناظرًا لأكبر رباط خاص بالمغاربة بمكة وهو رباط الموفق .

وبعد استعراض أبرز شيوخ المؤلف رحمه الله ، حاول الباحث تتبّع **تلاميذه** من خلال مَن ترجم له أو من خلال تراجم المؤلف نفسه في " دستور الإعلام " ، لكن انتهى البحث دون نتيجة . وقد يكون السبب في ذلك هو أن المؤلف لم يجلس للتدريس ولم يشتهر بالإجازة ، ربما لانشغاله بعمله في الوراقة . غير أن شهرته كخبير في التراجم وتتبّع وفيات الأعيان عبر الزمان جعل له أصحاب – وإن لم يكونوا تلاميذ – يأخذون عنه علمه ، كالعلامة المؤرخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ/1505م) الذي يقول في كتابه بغية الوعاة[56] في معرض ترجمته لأحد النحاة: " أخبرني صاحبنا المؤرخ شمس الدين ابن عزم بمكة أن وفاته سنة أربع وثمانين أو ست وثمانين ، الشك مني " . ومثل هذه الأقوال تكرّرت كثيرًا من صاحبه الآخر العلامة المؤرخ محمد السخاوي في ضوئه اللامع .

وأما **عقيدة** المؤلف رحمه الله تعالى فلا ريب أنه سُنيّ أشعري كأغلب فقهاء المغاربة في تلك العصور ، بل وإلى عصر متأخر من وقتنا الحاضر . غير أن ما يُلفت الإنتباه في ترجمة ابن عزَم التي ساقها شيخه النجم عمر ابن فهد في الدر الكمين بذيل العقد الثمين، وصاحبه السخاوي في الضوء اللامع وفي وجيز الكلام ، يشير إلى ظاهرة الميل إلى التصوف والصوفية وكتبهم ، فقد أكّد ابن فهد (ت885هـ/1480م) قبل السخاوي (ت902هـ/1496م) بسنوات على تعلّق المؤلف بكتب ابن عربي وحرصه على جمعها ، فقد قال رحمه الله : " اعتنى بتحصيل تصانيف ابن عربي[57] والميل إليه وإلى من يعرف منه ذلك ، فصار من أكبر الدعاة لمقالته ، وصار يهادي أهل الهند بتصانيفه ليرتفق بمكافأتهم"[58] ، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على أن صديقه السخاوي لم يبالغ في وصف المؤلف عندما قال: " اشتدّ حرصه على تحصيل تصانيف ابن عربي والتنويه بها وبمصنفها حتى صار داعية لمقالته ، وركن إليه أهل هذا المذهب (الصوفية) فكان يجلب إليهم من تصانيفه ما يُنمّقه ويُحسّنه فيُرغبونهُ في ثمنه ، وربما قصد كثيرًا من عوام المسندين في الخفية لقراءتها لتكون متصلة الإسناد "[59] ، وقال في معرض

ترجمته لبدر الدين الفوي : " وقيل لي إنه يعتقد ابن عربي ، ولذا كان ابن عزم وغيره من أضرابه يميل إليه كثيرًا "[60] .

وربما يرجع السبب في تعلق المؤلف رحمه الله بكتب الصوفية وكتب ابن عربي خاصة ، إلى ذكره السخاوي نفسه آنفًا من أن ابن عزم كان يهتمّ بكب الصوفية لأنه كانوا يدفعون له أسخى الأثمان فيها ، فكان دافعه تجاري محض وليس عقدي ، والدليل أنه كان يجتهد في وصل إسناد هذه الكتب لأجل الزيادة في أسعارها وليس حبًّا فيها .

كما أنه يجب الإشارة إلى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي تواجد فيه عددٌ من أتباع الصوفية والروافض ، وقد وَجَدت كتبهم رواجًا عند بعض النساخ والباعة بعد أن لاحظوا الاقبال عليها ، فعلى سبيل المثال كان محمد بن أحمد بن محمد المصري (ت801هـ/1398م) نزيل مكة ، من الوراقين الذين مالوا إلى الصوفية ، واهتموا بجمع كتبهم وترويجها[61] .

حياته العلمية والعملية :

لا شكّ أن الشيخ ابن عزم كان ورّاقًا معروفًا بمكة ؛ وقد أكد ذلك المؤرخ السخاوي بقوله: " سافر من مكة غير مرة إلى القاهرة ، وتكسّب في كل منها بالتجليد وكذا بالتجارة في الكتب "[62] . وقد واكب التحركات العلمية النشطة والمتنوعة التي شهدتها مكة إبان العصر المملوكي حضور قويّ وفاعل للوراقة والوراقين فيها ، بعد أن ازدادت أنشطتهم ونمت أعدادهم بشكل ملحوظ خلال هذا العصر عما هو عليه في العصور السابقة ، وقد شاركت في هذا الحضور المميّز شريحة كبيرة من المثقفين والمهتمين بالعلم ، سواءً كانوا من المكيين أو النزلاء الذين قطنوا مكة أو المجاورين الذين آثروا البقاء فترة من الزمن في أقدس البقاع[63] .

وقد اقتضت التحركات العلمية النشطة والمختلفة الاتجاهات في مكة في هذا العصر ، إضافة إلى كثرة الوافدين من العلماء والطلاب ، تنظيم عملية بيع الكتب والمصنفات العلمية التي تزايد الطلب عليها في الأوساط العلمية داخليًا وخارجيًا ؛ فقد ذكر العز ابن فهد – على سبيل المثال – أن بعض العلماء والميسورين من أهل الهند وغيرها كانوا يقدمون مكة في حدود سنة 888هـ/1483م لشراء الكتب[64] . وحتى السلاطين والملوك كانوا يرسلون مبعوثين من قبلهم إلى مكة لشراء بعض الكتب فقد أرسل – مثلاً – السلطان اليمني عامر بن عبد الوهاب الطاهري (ت923هـ/1517م) من يشتري له أحد الكتب من الأرض المطهرة[65] . وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على رواج تجارة الكتب بمكة أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي . وتعود غزارة الكتب المتوفرة بمكة إلى أنها كتب جلبها العلماء وطلبة العلم والتجار ، وقد أوقفوها عند مغادرتهم على الطلبة للإستفادة والإفادة ولتكون صدقة جارية[66] ،وقد أشار ياقوت الحموي إلى معلومة هامة وهي أن الكتب النادرة التي يعزّ وجودها كان الباحث عنها ينشدها ويلجأ إلى من ينادي بها بالمسجد الحرام وبمناطق المشاعر في موسم

الحج[67] ، وهذا دليل على أن مكة كانت أشبه بمكتبة ضخمة تحتوي على كنوز الكتب النفيسة والنادرة .

وقد نتج عن الطلب المتزايد للكتب أن تكاثر النساخون بالأجرة في مكة . ولم يقتصر ذلك العمل على المتخصصين في النسخ ، بل تعداهم إلى بعض العلماء وطلبة العلم الذين استعانوا بالنسخ لغيرهم للحصول على القوت[68] ، ومن هنا ظهرت فئة من الوراقين المعروفون بالكتبيّين في مكة ، اهتمت بتسويق الكتب وتوفير حاجات العلماء والطلاب من هذه المؤلفات ، وجعلت من هذا العمل مصدرًا للرزق[69] .

ورغم أن أكثر المشتغلين بالوراقة في مكة كانوا من فئة الناسخين ، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود مَن قام بأمور الوراقة الأخرى كالبيع والشراء أو التجليد والتذهيب[70] ، فقد جعلوا من العمل في النساخة مصدرًا للرزق يقتات منه ، وقد أشارت المصادر إلى عدد من النزلاء الذين اعتمدوا – بعد الله تعالى – على التكسّب من النساخة ، وهو ما كان يمارسه المؤلف بنشاط لسنين طويلة .

وربما مما شجّع ابن عزم على اتخاذ هذه الحرفة مصدرًا للرزق هي العوامل المساعدة لنموها وازدهارها المطرد ، فكثرة الوافدين على أم القرى في الحج والعمرة – وربما كرّر بعضهم الزيارة لأكثر من مرة – تجد كثيرًا منهم قد يستغني عن كتبه – وقد تكون نادرة في بابها – لحاجته المالية فيضطر لبيعها ، وهنا يظهر أمثال المؤلف لاستغلال الفرصة وشرائها لإعادة بيعها فيما بعد بسعر مضاعف.

وأشار المؤرخ العز ابن فهد من خلال إيراده بالذكر لوفاة بعض المكيين أو المجاورين بأن مهنتهم كانت " دلالة الكتب " ووصف بعضهم بدلال الكتب وذلك لوجود سوق مزدهرة لبيع الكتب بمكة المكرمة ، وهي تجارة أوجدت كثير من النساخ وسماسرة الكتب، وهذا لازدهار طلب العلم بهذه البقعة الشريفة[71] . ولا شك أن المؤلف كان يمارس عمله هذا ناحية باب السلام من المسجد الحرام، حيث كان بالقرب من هذا الباب موضع تجمّع النساخ والكتبيّين في هذه الفترة[72] .

ومما يدل على أن ابن عزم كان ميسور الحال نوعًا ما في تجارته هذه ، أنه كان يملك عبدًا للخدمة اسمه "أبو النور بدر الحبشي"، وكان ابن عزم حريصًا على تعليمه وإسماعه الحديث في حلقات العلم ، ثم أعتقه قبل وفاته بسنين وذلك في شعبان سنة 873هـ/1468م[73]. وقد ذكر السخاوي أن بعض أهل مكة كان يُعلّم النابهين من عبيده وغلمانه صنعة التجليد ليتكسّب ها ، كحال " مفتاح الحبشي " مولى " الموفق الأبيّ "[74] ، وربما كان حال " ابن عزَم " مع عبده " بدر " كحال " الموفق الأبيّ " مع عبده " مفتاح " ، على الأقل قبل إعتاقه ، لاسيما وأن الأبيّ كان من شيوخ ابن عزَم . ولإن شابه التلميذُ شيخَه فما ظلم ! .

وبخصوص الحياة العلمية للمؤلف ؛ نُشير إلى أن الشيخ ابن عَزَم قد ألف إلى جانب كتابه " دستور الإعلام " ، كتبًا أخرى في التاريخ ، منها : كتاب " الكتائب الكامنة من وفيات المائة الثامنة "[75] ، وكتاب " تقريب المطالب الشاسعة

من وفيات المائة التاسعة " ، ابتدأ تسويده سنة 859هـ/1510م[76] . كما له كتابًا في العقيدة سمّاه : " المنهل العذب في شرح أسماء الرب " [77]. وفاته وكلام العلماء عليه :

ذكر المؤرخ العز ابن فهد – وهو من معاصريّ المؤلف بل وبلديُّه وممّن شهد وفاته وحضر جنازته – أن الشيخ شمس الدين محمد بن عمر بن عزَم " توفي ليلة الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة 891هـ/1485م ، وابنته البكر البالغ " ليلى" وهي قبله بساعة ، وصُلّي عليهما بعد صلاة الصبح عند باب الكعبة ، ودفنا من يومهما بالمعلاة عند المغاربة أهل رباط الموفق[78] ، عند تربة سيدي الشيخ سفيان بن عيينة رضي الله عنه "[79] . وقد علّق العز ابن فهد في آخر ترجمة ابن عزَم التي ساقها والده النجم عمر في الدر الكمين بأنه " دُفن بالمعلاة عند تربة الشيخ عبد المعطي بالقرب من الشيخ سفيان بن عيينة رحمه الله وإيانا "[80] . فلعلّ قبري الشيخ عبد المعطي والحافظ ابن عيينة كانا بالقرب من مقبرة رباط الموفق – المعروف برباط المغاربة – بمقبرة المعلاة .

ومن خلال ما أورده العزّ ابن فهد ربما نستطيع أن نستنتج أن الشيخ ابن عزَم رحمه الله تعالى ربما مات – إلى جانب عوامل أخرى – حُزنًا على وفاة ابنته المراهقة ، حيث لحقها بعد ساعة من وفاتها رحمها الله تعالى . مع أننا يجب أن لا ننسى أنه فُجع قبل سبع سنوات من وفاته بوفاة ابنه النجيب وخليفته في العلم "أبو زرعة محيى الدين محمد " ثم لحقته بالوفاة بعد أشهر قليلة زوجته " فاطمة بنت عبد الله القرشي" .

وأما ما ذكره العلماء والمؤرخون في حقه – إيجابًا أو سلبًا – فنذكر هذه الأقوال القليلة مرتبة فيما يلي :

– قال العلامة المؤرخ النجم ابن فهد (ت885هـ/1481م) : "صاحبنا المحدث المؤرخ"[81] .

– قال صاحبه السخاوي (ت902هـ/1496م) : "إنه خَلَط ، فإنه اشتدّ حرصه على تحصيل تصانيف ابن عربي والتنويه بها وبمصنفها حتى صار داعية لمقالته ، وركن إليه أهل هذا المذهب فكان يجلب إليهم من تصانيفه ما يُنمّقه ويحسّنه فيُرغبّونه في ثمنه ، وربما قصد كثيرًا من عوام المسندين في الخفية لقراءتها لتكون متصلة الإسناد زعم . وعذلته كثيرًا عن ذلك فما كفّ ، بل أفاد حقدًا ومقاطعة"[82] .

– وصفه صديقه السيوطي (ت911هـ/1505م) : بـ "صاحبنا المؤرخ"[83] .

– وصفه المؤرخ محمد ابن الغزي (ت1167هـ/1753م) : بـ "الشيخ الإمام المحدث المؤرخ ، مؤلف التاريخ (أي دستور الإعلام) الذي حذوتُ حذوه بهذا التاريخ" (أي ديوان الإسلام) [84].

ثانيًا : الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بمكة في القرن التاسع الهجري وأثر المغاربة المجاورين في الحياة العلمية المكية : المبحث الأول : الأحوال السياسية :

قبل التطرق إلى الأحوال السياسية بمكة المكرمة خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، لا بدّ من ذكر نبذة موجزة عن نشأة الدولة المملوكية (648هـ - 923هـ/1250م - 1517م) التي ضمّت الحجاز إلى نفوذها وعيّنت على مكة 47 واليًا تقريبًا[85] .هذه الدولة التي ظلّت لأكثر من قرنين ونصف القرن من الزمن ، وقد لعبت دورًا بارزًا في الدفاع عن البلاد الإسلامية وردّ العدوان الخارجي عنها .

وعليه ؛ فقد بدأ المماليك بالظهور عندما تولّى الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطنة مصر سنة 636هـ/1239م عندما استكثر من شرائهم وضمّهم إلى الجيش وأسكنهم جزيرة الروضة ، فعُرفوا بالمماليك البحرية لإقامتهم في هذه الجزيرة[86]. ولما قتل الملك المعظم توران شاه ابن الملك الملك الصالح سنة 648هـ/1250م على أيدي مماليك والده ، انتهت بمقتله الدولة الأيوبية وبدأ الاستعداد لقيام دولة المماليك البحرية لاسيما بعد زواج عزّ الدين أيبك التركماني بشجرة الدّر زوجة الملك الصالح وتوليه السلطنة[87]. وقد استمرت السلطنة المملوكية البحرية في الحُكم وإرساء دعائمه لمدة 132 سنة ، تولّى فيها 29 سلطانًا . ثم بدأت مرحلة سلطنة المماليك الجراكسة البرجية سنة 748هـ/1382م – وقد سموا بهذا الاسم لأنهم سكنوا الأبراج – وذلك بسلطنة الظاهر برقوق لتُختم بمقتل الأشرف قانصوه الغوري على أيدي العثمانيين في معركة مرج دابق سنة 922هـ/1516م[88].

وأما مكة فقد كانت منذ سنة 601هـ/1204م وإلى قيام الدولة السعودية الثالثة تحت حُكم الأشراف الحسنيون من ذرية قتادة بن إدريس . وكانت قبل هذا التاريخ بأيدي الهواشم من بني فليتة[89] . وقد ميّز هذه الأسرة وبنى لها تاريخها الطويل ؛ أبناء وأحفاد الشريف محمد بن حسن بن عليّ بن قتادة المعروف بأبي نميّ الأول ، حيث حكم مكة لأزيد من خمسين سنة وخلّف أكثر من عشرين رجلاً توارثوا حُكم مكة عقودًا من الزمن[90] .

وهكذا خضعت مكة وسائر الحجاز للدولة المملوكية ابتداءً من سنة 667هـ/1268م عندما زكّى السلطان الظاهر بيبرس الشريف أبا نميّ الأول على الإمارة وأرسل من القاهرة نائبًا عنه بمكة هو الأمير شمس الدين مروان[91] . غير أن السيطرة السياسية والاقتصادية كانت لمكة على بقية مدن الحجاز كالمدينة وجدة وينبع ، حيث كانت سيطرة رسمية بسبب تفويض السلطان المملوكي بالقاهرة لشريف مكة أن يكون حاكمًا بالنيابة على كامل الحجاز[92] . وأما حكام المدن الحجازية الصغيرة وبعض المناطق ، فغالبًا ما كانوا زعماء البدو أو من الأشراف[93].

ولقد تميّز من حكّام مكة الحسنيّين ؛ الشريف حسن بن عجلان بن رميثة ابن أبي نُميّ (797هـ - 829هـ/1394م - 1425م) ، فقد كان أقوى حكامها مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، لما بلغه من الثراء والجاه والسؤدد ، فقد كان له جيش من العبيد والمماليك منذ سنة 803هـ/1400م[94] ،

وقد حاول الاستيلاء على اليمن سنة 812هـ/1409م بعد أن كان قد استولى سنة 804هـ/1401م على منطقة حُليّ بن يعقوب على الحدود اليمنية[95] ، وقد وصل نفوذه حتى بلاد هرمز على الساحل الإيراني ، حيث كان الشريف يُرسل وكيله لقبض الخراج[96] . وقد ظهر مقدار غناه واتساع ثروته في المبالغ المالية الضخمة التي كان يرسلها إلى سلاطين المماليك بالقاهرة جلبًا لرضاهم أو إطفاءً لغضبهم أو التماسًا لإعادته إلى الامارة بعد أن كان يُعزل[97] بسبب طموحه ومطامعه ، كتلك المبالغ التي أرسها إلى السلطان فرج بن برقوق سنة 812هـ/1409م وإلى السلطان المؤيد شيخ المحمودي سنة 819هـ/1416م وإلى السلطان الأشرف برسباي سنة 829هـ/1425م ، وهي سنة وفاته ، حيث طُويت بعده فترة الأشراف الأقوياء المتنفذين[98] .

خلّف الشريف بركات والده حسن بن عجلان على حُكم مكة سنة 829هـ/1425م ، لكن بعد أن دفع بركات للسلطان بالقاهرة مبلغ 25 ألف دينار كانت متبقية على والده ، مع شرط أن يحمل كل سنة إلى دار السلطنة مبلغ عشرة آلاف دينار[99] .

غير أن أهم ما ميّز فترة حكم الشريف بركات (829هـ – 859هـ/1425م – 1454م)؛ هو منازعة إخوته عليّ وأبو القاسم وإبراهيم له على السلطة . وقد كان الشريف يتتبع أخبار إخوته ويخشى من سفرهم إلى القاهرة محملين بالهدايا للسلطان المملوكي . وكان هؤلاء الإخوة إذا تغاضبوا مع الشريف وخافوا من سطوة أخيهم ، كانوا يحاولون السفر إلى مصر لتجنب سطوة أخيهم من جهة ،ولمحاولة الحصول على الإمارة من السلطان المملوكي بعد الإغداق عليه بالهدايا والمبالغ المالية[100] من جهة أخرى.

ومن غريب الصراع على السلطة لدى أشراف مكة في هذه الفترة ، هو كثرة الخلاف الذي يعقبه صلح ، ثم يعاود الخلاف وهكذا دواليك ، فقد وقع الخلاف بين شريف مكة وأخويه إبراهيم وأبو القاسم سنة 831هـ/1427م ، ثم حاول الوسطاء الاصلاح بينهم أول سنة 832هـ/1428م لينجح الصلح آخر هذه السنة ، لكن بين الشريف وأخيه إبراهيم فقط[101]، في حين ظل أخوهما الآخر " أبو القاسم " مغاضبًا للشريف ومقيمًا جنوب مكة يقطع الطريق على القوافل التجارية القادمة والصادرة من مكة. ولم يتوقف أبو القاسم عن أفعاله هذه حتى صالحه الشريف سنة 833هـ/1429م على مبلغ 2100 قطعة ذهبية ، ولمدة 3 أشهر فقط[102] ، على أن يقم أبو القاسم باليمن[103] (أي جنوب مكة) . ثم تجدّد الخلاف ليتجدّد الصلح في رجب سنة 837هـ/1433م [104] ،وفي سنة842هـ/1438م ثار الخلاف بين الشريف وأخيه إبراهيم ثم حدث الصلح في نفس العام[105] ! .

ظل الشريف بركات في الإمارة لسنوات حتى عزله السلطان جقمق سنة 844هـ/1440م؛ ليُفتح الباب بعدها للصراع المتجدّد على السلطة مع أخويه عليّ وأبي القاسم ، انتهت بنصر الشريف بركات على أخويه[106] .

ولقد كان لشريف مكة بركات نفوذًا لدى السلطان المملوكي ، حيث راجعه سنة 838هـ/1434م في إبطال بعض المراسيم الاقتصادية الصعبة على التجار فأبطلت ، مع أن هذه المراسيم كانت قد قُرئت بالمسجد الحرام اتجاه الحجر الأسود[107] ! . وظهرت مكانة الشريف لدى السلطان المملوكي جقمق مرة أخرى عندما أعفاه بمرسوم سنة 843هـ/1439م من تقبيل خفّ جمل محمل ركب الحاج المصري[108]. كما كان للشريف مكانة لدى أهالي البلد الحرام وتجاره والمجاورين به ، فقد ورد مرسوم سلطاني سنة 844هـ/1440م بضرورة حضور شريف مكة إلى القاهرة ، لكن الناس اجتمعوا ورغبوا من الشريف ألا يسافر لأنه لا يأمنون عل البلد في غيابه ، فكتب الشريف إلى السلطان بذلك ورغبه في إرسال مبلغ 10 آلاف دينار عن نفسه وخمسة آلاف عن ذويه الأشراف ، فأعفاه السلطان من الحضور[109] ! .

تجدر الإشارة إلى أنه وبوجه عام ، كانت الثقة ضعيفة بل ومنعدمة أحيانًا بين حاكم مكة ومن معه من الأشراف بأمراء الحج من المماليك والأتراك ، لدرجة أنه – على سبيل المثال – في وقفة عرفة من حجّ سنة 844هـ/1440م لما توجه الأمراء والمماليك إلى مسجد نمرة للصلاة ، ظن أشراف بني حسن أنهم ركبوا للقبض على الشريف بركات ، فلبسوا السلاح وركبوا الخيل وكادت تقع الفتنة ، حتى أن شريف مكة لم يقف بجبل الرحمة مع الأمراء بل وقف بأطراف عرفة[110] . وحتى عندما عُزل الشريف بركات عن الحكم سنة 844هـ/1440م وعيّن بدله أخوه إبراهيم ، كان الأخير يتوجس خيفة من غدر وتقلبات السياسية المملوكية بالقاهرة ، فقد كان تأخر ثم عدم حضور الشريف إبراهيم عن موعد لباس الخلعة وقراءة مرسوم السلطان بتنصيبه بالمسجد الحرام سنة 846هـ/1442م ، بسبب انعدام الثقة بين الشريف والسلطان المملوكي لشدّة تغيّر سلاطين المماليك بالقاهرة على حكام مكة وعملهم شبه المتواصل على تغييرهم بحسب من يدفع أكثر من هؤلاء الحكام إلى هؤلاء السلاطين من مال أو هدايا[111]. وقد وقع فعلاً الغدر بشريف مكة إبراهيم – كما كان متوقعًا – من طرف أمير الحج تمراز المملوكي ، فقُبض عليه وأرسل مع أخيه عليّ مقيّدين إلى القاهرة[112] ، وولّي أخاهما الشريف أبو القاسم حُكم مكة[113].

غير أن الخطورة التي تكمن في سياسة العزل هذه هو فداحة الاضطرابات الأمنية التي تُسبّبها ؛ فقد أدّى عزل الشريف بركات عن الحكم إلى تمرد هذا الحاكم السابق واقتحمه مدينة جدة لأخذ الضرائب من التجار بالقوة الجبرية ، مما أدّى إلى وقوع اشتباك مسلح مع عسكر مكة من الأشراف والمماليك الأتراك ، فانهزم الشريف وفرّ إلى ناحية اليمن[114] . وهكذا تحول الشريف إلى قاطع طريق، حيث كان يأخذ من الأعراب النازلين بالقرب من مكة إبلهم ومواشيهم ، وربما قتل بعضهم كذلك ، كما فعل سنة 848هـ/1444م . ووقد ذكر النجم ابن فهد أن غاية الشريف من تلك الأعمال هو توزيع " الغنائم " على أتباعه لشراء الخيل والسلاح ببيع هذه المواشي المشبوهة[115] .

وحتى بعد عزل الشريف بركات وتولية أخاه أبو القاسم ، فقد تحول الصراع السياسي بين الإخوة إلى صراع بين الوالد وولده ، وهو ما كان قائمًا بين شريف مكة أبو القاسم وابنه حسن منذ سنة 848هـ/1444م إلى سنة 849هـ/1445م . وقد حاول وجهاء الأشراف والشيخ عبد الكبير الحضرمي التوسط في الاصلاح بين الطرفين حتى تمّ ذلك بعد عدة أيام[116] .

إن مهزلة التولية والعزل التي كان يمارسها سلاطين القاهرة تسبّبت في أشد الفتن ضراوة بين الأشراف في صراعهم على السلطة ، كما حدث سنة 850هـ/1446م عندما كان يصل إلى مكة مرسومان في وقتين مختلفين مع قاصدين متغايرين ، ليُخبر أحد المرسومين أن الولاية للشريف الحالي أبي القاسم وأن السلطان راضٍ عنه وعن سلامة الحجاج في الموسم الفائت ، في حين نجد القاصد الثاني يتوجه بمرسوم إلى الشريف المعزول بركات ليعلمه أن السلطان قد أنعم عليه بالولاية عوضًا عمّن بها[117] .

وبعد أن استردّ الشريف بركات حكم مكة لم يطل بقاءه بها لموته ، فخلف على الحكم ابنه محمد الذي كانت علاقته قوية بالسلطان المملوكي قايتباي ، لدرجة أن الشريف سمّى أحد أولاده باسم السلطان[118] . لكن الفتنة على السلطة تواصلت وانتقلت من الأعمام إلى أبنائهم ، ففي شعبان سنة 872هـ/1467م بدأت الفتنة بين شريف مكة محمد بن بركات وأخيه عليّ ، وذلك عندما سافر الأخير إلى القاهرة لطلب الإمارة من السلطان المملوكي . وكان من توابع هذه الفتنة نفي الشريف لمحتسب مكة ونائب البلد لاتهامهما بمواطأة أخاه عليّ في الخروج عليه[119] . بل وكانت أشد هذه التوابع دموية هو قتل الشريف محمد لابن وزيره القائد الشريف[120] محمد بن بُديد بن شكر[121] ، ثم قتل خال هذا القائد ، أحمد بن قفيف بسبب التهمة نفسها . وقد دفن الرجلين بمقبرة المعلاة بعد أن نودي في الناس بأن لا تُشهد جنازتهما ولا يُناح عليهما[122] ! . ولقد كان الأمن خلال هذه السنوات منعدمًا على طول الطريق الواصل بين مكة والمدينة ، لدرجة أن قاضي القضاة الحنبلي بمكة خرج عليه قطاع الطرق عند رجوعه من المدينة إلى مكة ، مرتين[123] .

لم تنعم مكة بالاستقرار طويلاً عقب وفاة الشريف محمد بن بركات ، حيث نشب النزاع بين أولاده بركات وهزاع والجازاني على الولاية ، وخاصة بين الشريف بركات (المعروف ببركات الثاني) وأخيه هزاع ، وقد حاول السلطان المملوكي محمد بن قايتاي الاصلاح بين الأخوين بأن أشرك هزاع مع أخيه بركات في الإمارة[124] ،وقد سعى بركات الثاني إلى تحقيق السلام مع أخويه هزاع والجازاني الصعبي المراس ، بينما كان هو يتسم بالعلم والورع[125]،وقد استمرّت هذه الفتنة[126] بين الإخوة لما يقارب الخمس سنوات انتهت بمقتل الجازاني سنة 910هـ/1504م[127]،وبها خُتمت حقبة الصراع على السلطة بين الأشراف خلال الفترة المملوكية .

لقد عزّزت فترة حُكم بركات بن حسن ثم ابنه محمد ثم حفيده بركات الهيبة الروحية للشريف داخل مكة في سائر الحجاز كأمراء لمكة[128] ، غير أن السلطة الفعلية ظلت بيد القاهرة التي كانت تنظر إلى مكة وسائر الحجاز مقاطعة مملوكية ذات وضع خاص . ولقد كان سلاطين المماليك كثيرًا ما يجعلون من مكة – والمدينة بشكل أقل – منفى سياسي لمن يغضبون عليه من الأمراء بالقاهرة ، حيث كانت مكة خصوصًا مراقبة من طرف السلطة المملوكية بواسطة حاميتها العسكرية المستقرة بها أو بواسطة عيون أمراء الحرمين الذين كانوا يلبون رغبات السلطان ويخشون غضبه إن هم أهملوا أوامره[129] .

المبحث الثاني : الأحوال الاجتماعية :

ارتبط الوضع الاجتماعي بمكة في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بالأجواء السياسية التي كانت السلطة بها محصورة بين الأشراف والمماليك ، حيث تنافس الطرفان أعمال البرّ والصدقات بين الأهالي لتدعيم المكانة في القلوب والسطوة في النفوس . فلقد قام سلاطين المماليك وأمراؤهم بأعمال البرّ والاحسان في الحرمين والرعاية لأمور الحج وذلك لتدعيم قواعد حكمهم للحيلولة دون استقلال أمراء الحجاز وتفرّدهم بالقرار السياسي[130] . فهذا السلطان المملوكي الظاهر برقوق (ت814هـ/1411م) كان كثير الصدقات لأهل الحرمين ، سواء من النقد أو من القمح ، وكانت تشمل الفقراء والفقهاء ، ووصلت إحدى صدقاته إلى خمسين ألف دينار[131]. وفي سنة 829هـ/1425م أرسل السلطان المملوكي الأشرف برسباي (ت841هـ/1438م) مركبًا من القمح ليوزع على فقراء الحرمين والمجاورين بهما ، وقد عمّ بها أهل مكة خصوصًا[132] . ثم في سنة 831هـ/1427م أرسل صدقات إلى المنطقة قُدّرت بخمسة آلاف قطعة ذهبية[133] .

كذلك فقد سنّ السلطان المملوكي الأشرف قايتباي (ت901هـ/1496م) منذ حجّه سنة 884هـ/1480م سُنّة استمرت طويلاً بعد ذلك ، وهو إرسال كميات كبيرة من القمح إلى الحرمين لعمل دشيشة (نوع من الطعام) للفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والغرباء[134]. وتجدر الإشارة إلى أن السلطان قايتباي هو آخر من حجّ من سلاطين المماليك ، حيث أشاد المؤرخون بما قام به من أعمال برّ وصدقات بمكة والمدينة خلال فترة حجه[135] .

ولم تقتصر الصدقات الواصلة إلى الحرمين الشريفين في هذه الفترة على حكّام المنطقة المحليين ، بل تنافس في إيصالها بعض ملوك العالم الإسلامي كذلك ؛ ففي سنة 831هـ/1427م وصلت صدقات وأوقاف أهل الهند للحرمين الشريفين ، منها أوقاف على أشراف المدينة[136] . وبعدها بسنة وصلت إلى مكة صدقات صاحب بنجالة [137] . ومن الصدقات الواصلة كذلك صدقات ملك دابول الهندي[138] . ومنها أوقاف الحرمين بلحج بالبلاد اليمنية ، الذي كان في سنة 888هـ/1483م يُخصّص ريعه للإنفاق على ما يحتاجه المسجد الحرام من خدمات التنظيف والإنارة والصيانة وغيرها ، وكان المال يتسلمه ناظر المسجد الحرام وهو

في الغالب قاضي قضاة الشافعية بمكة[139] . وفي ذي الحجة من نفس السنة وصلت صدقات بلاد الروم (العثمانيون)[140] ، وهو مال قُدّر بألف وخمسمائة دينار ذهبي ، أخذ شريف مكة منه الثلث[141] . مع أن الشريف كانت له أملاكًا واسعة من الأراضي والعمائر بمكة والطائف ، حتى أنه كان أحيانًا يسافر لأيام ليتفقد أملاكه[142] .

وهذا يقودنا إلى تناول ظاهرة خطيرة في هذا المجال ، وهي ظاهرة أن الصدقات الواصلة إلى مكة من أطراف المعمورة كان يأخذ ثلثها شريف مكة ويُوزع غالبها على القضاة والخطباء ووجهاء الناس ، ولا يأخذ منها الفقراء وذوي الحاجات إلا النزر اليسير ، مع أن الأصل في الصدقات أنها لهؤلاء المساكين . وقد أورد العز ابن فهد نماذج كثيرة لمثل هذه القسمة الضيزى[143] . وكان العز ابن فهد كثيرًا ما يشتكي من سوء هذه القسمة[144] ، بل لقد وصل الأمر إلى إعطاء أولاد القضاة من هذه الصدقات ، وكان مبلغ ما يعطونهم كبيرًا[145] . بل من الغريب أن هذه الصدقات إذا كانت قليلة فإن ناظر الحرم المشرف على توزيعها يحرص على أن ينال القضاة وأولادهم حقهم كاملاً ، ولا بأس إن حُرم منها كثيرٌ من المحتاجين[146] ! .

وبسبب ما تواتر عن سوء توزيع الصدقات الواردة إلى المسجد الحرام من طرف قاضي قضاة الشافعية بمكة [147] ، حرص ركب حُجّاج المغاربة القادمين للحج في موسم سنة 889هـ/1484م على توزيع الألف دينار التي جلبوها معهم بأنفسهم ، حيث استخرجوا لذلك مرسومًا من السلطان المملوكي بمصر للحيلولة دون منعهم ، لاسيما من طرف شريف مكة[148] .

ومن رَحِم مثل هذه الممارسات البعيدة عن عدل الإسلام وفضله ، برزت في المجتمع المكي ظاهرة الرشوة[149] للحصول على المناصب الرفيعة ، بما في ذلك رئاسة القضاء والنظر في شؤون المسجد الحرام ؛ ففي سنة 837هـ/1434م : عُزل أبو السعادات ابن ظهيرة بداود بن عليّ الكيلاني ببذل مال السلطان ، لكن شريف مكة بركات أنكر ذلك أنفة لابن ظهيرة ومنع داود من التحدث وأقام الأمير سودون المحمدي شاد العمائر بالمسجد الحرام مؤقتًا إلى أن يرد الجواب من السلطان ، حيث بيّن بركات أن أهل الحرم لم يرضوا بولاية داود ، فوصل الردّ من السلطان بعد أيام ببقاء سودون في هذه الوظيفة[150] . وفي سنة 861هـ/1456م بذل القاضي محب الدين أحمد بن أبي السعادات بن ظهيرة لحاكم جدة الأمير المملوكي جاني بك مبلغ 2500 دينار ذهبي وعدّة من الكتب لكي يولّيه رئاسة قضاة الشافعية عوضًا عن والده المتوفي[151] . وفي سنة 892هـ/1486م بذل القاضي أبو السعود جمال الدين ابن ظهيرة عشرة آلاف دينار ذهبي للسلطان بالقاهرة لتثبيته على منصب أخيه المتوفى ، وهو منصب ناظر المسجد الحرام وقاضي قضاة الشافعية[152] .

وقد حاول السلطان المملوكي القضاء على ظاهرة الرشوة المستفحلة في مكة وذلك عندما فوّض سنة 848هـ/1444م شريف مكة أبو القاسم في التدقيق في

سلوك محتسب مكة محب الدين محمد بن عز الدين النويري وإمكانية تعاطيه الرشوة في وظيفته ، وفوّضه في عزله إن ثبت عليه ذلك[153] ، ولكن لا حياة لمن تنادي .

من ناحية أخرى ؛ فقد شارك كبار تجار مكة من المستوطنين والغرباء في توقيف الأحباس على الفقراء والمساكين والغرباء المتعطلين ؛ ففي سنة 832هـ/1428م عمّر أحد التجار المجاورين بمكة واسمه أحمد بن جمعة جانبًا من البيمارستان ووسع فيه وفتح له بابًا لإخراج الموتى وإدخال الحطب والماء[154] . ولما وقع سيل سنة 837هـ/1433م ؛ كان للتجار المجاورون دورٌ هام في إصلاح ما أفسده السيل داخل المسجد الحرام ، حيث انتدبوا لإخراج الطين منه وفرش البطحاء بساحته ، حيث قُتل في هذا السيل أكثر من عشرين شخص غرقا وتحت الهدم ، كما تهدم ما يقارب ألف بيت[155] . وبعد السيل ، وفي شعبان من هذه السنة ضرب مكة وباء شديدًا فبلغ عدد القتلى في اليوم الواحد خمسون شخصًا[156] . وفي سنة 843هـ/1439م الذي أوقف الخواجا (أي كبير التجار) بدر الدين بن الطاهر سبيل المياه ببيته بمنى[157] . وفي سنة 846هـ/1442م ساهم أهالي مكة والمقيمين بها من التجار في تعمير عين حُنين ، وفي سنة 849هـ/1445م ساهموا في تسبيل عيون وبرك الماء ، لاسيما بمنى والطرق المؤدية إليها لفتحها للحجاج أيام التشريق من موسم الحج[158] . وفي سيل سنة 887هـ/1482م تعاون كبار تجار مكة من المستوطنين والمقيمين في حملة تنظيف المسجد الحرام بعد السّيل المدمر[159]، الذي هلك فيه أكثر من سبعين نفرًا[160] . وعندما مات التاجر المكي الكبير الخواجا شيخ محمد قاوان الكيلاني سنة 889هـ/1484م مدحه رئيس المؤذنين من على قبة زمزم وبكاه أهل مكة من الرجال والنساء وامتلأت المقبرة بالمشيعين ، وبكاه كذلك الفقراء والمجاورون بالمسجد الحرام ، لأنه كان كثير البرّ بهم واسع الصدقات[161] .

وهناك ظاهرة اجتماعية خطيرة أرّقت المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، ولم يكن الحجاز – كغيره من المناطق الإسلامية الأخرى – بمعزل عنها ، ألا وهي ظاهرة إفساد الأعراب في ضواحي المدن وقطعهم السبيل وترويعهم الآمنين . ففي سنة 859هـ/1454م بلغ إفساد الأعراب أوجّه عندما نهبوا كامل ركب الحج التكروري (السوداني) كما اوقعوا مقتلة عظيمة بركب حجاج المغاربة الذين رفضوا الاستسلام[162] . وربما يعود سبب سطوة هؤلاء وجرأتهم إلى أن الشريف محمد بن بركات أخرج سنة 860هـ/1455م من كان محبوسًا منهم في فترة والده بركات ، وحلفهم على الحجر الأسود ألا يقطعوا الطريق ويفسدوا في البلاد[163] ، ولكن النتيجة جاءت خلاف ما كان يؤمل .

ولشدة إفساد الأعراب ؛ فقد قام الأمير المملوكي سودون المشرف على نظر المسجد الحرام بإزالة الأشجار والحجارة التي كان يكمُن فيها السّراق وقاطعوا الطريق من الأعراب للحجاج بنواحي منى ومزدلفة وعند جمرة العقبة[164] . وفي سنة 866هـ/1461م قطع أعراب حرب بالقرب من مرّ الظهران لركب الحج

الشامي وهم في طريق العودة ، وقد استطاعت قوة من فرسان شريف مكة أن تلحق بالمجرمين وتسترجع كثير من أموال الحجاج حيث تمّ إرجاعها لأصحابها[165] . وفي سنة 868هـ/1463م قتل الأعراب بالقرب من خليص الأمير المملوكي الدوادار بُردبك الأشرفي إينال وهو راجع من منفاه بمكة إلى القاهرة . وكان هذا جرأة كبيرة من الأعراب في مهاجمة أمراء المماليك[166] .

ولم يكن إفساد الأعراب الآفة الاجتماعية الوحيدة التي أقلقت مضاجع المكيين في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، فقد كان الوباء والغلاء من جملة هذه المحن ؛ فقد حصل الوباء بمكة في بعض السنوات ، مثل سنة 827هـ/1423م وسنة837هـ/1433م وسنة 843هـ/1439م[167]، وسنة 881هـ/1476 م [168]. وكان وباء سنة 827هـ/1423م من أعظم ما شهدته مكة من أوبئة ، فقد ذكر المقريزي أنه كان يموت في اليوم الواحد خمسون إنسانًا وأن هذا الوباء قضى على ثلاثة آلاف شخص[169] . وأما الغلاء فقد وقع بمكة في سنوات 805هـ/1402م و815هـ/1412م و822هـ/1418م و823هـ/1419م و831هـ/1427م و855هـ/1451م و899هـ/1493م ، وحدث في بعضها مجاعات أدّت إلى هلاك بعض الناس[170] .

كذلك مما آدى المجتمع المكي ظاهرة السيول ؛ ففي سنة 825هـ/1421م وصل إلى باب الكعبة وهدم دورًا وضرب سور المعلاة . وفي سنة 837هـ/1433م وصل إلى باب الكعبة وخرّب نحو ألف دار ، وبعدها بسنة كان سيلاً آخر عظيمًا دخل المسجد الحرام وهدم 800 دار . وفي سنة 871هـ/1466م دخل الكعبة وخرّب دورًا كثيرة . وفي سنة 880هـ/1475م كان أعظم السيول التي وقعت بمكة في الجاهلية والإسلام ، حيث مات به فقط في المسجد الحرام 180 نفسًا[171]. وفي سنة 887هـ/1482م اجتاح السيل المسجد الحرام ومات بسبب خلائق لا تحصى وهُدّمت دورًا كثيرة[172] . وفي سنة 895هـ/1489م وصل السيل إلى نحو الحجر الأسود ووقعت بسببه دورًا كثيرة[173] .

ومن المظاهر الخطيرة التي كادت تفتك بالمجتمع المكي في هذه الفترة ؛ ظاهرة التشيع ومحاولة الروافض التغلغل في صفوف المجتمع[174] تحت ستار الزهد والاصلاح ومحاربة الظلم والفساد كما هو شعارهم المزيف الدائم في كل عصر ومصر ؛ ففي سنة 886هـ/1481م جيئ بشخص من جبل عرفة يقال له الشيخ عبد الله كان يدعي الاصلاح وكان استقر بالجبل من ذي القعدة إلى نهاية صفر، حيث ازداد تردّد العوام وغيرهم لزيارته ، وكان الناس ينقلون عنه كلام سيئ في الصحابة الكرام، فأرسل قاضي القضاة برهان الدين ابن ظهيرة من يختبره فوجده كذلك ، فنقل إلى مكة وحبس ثم عزّر بالضرب المبرّح . ثم بعد أيام ظهر شخص آخر يقال له يوسف العجمي كان من الخدام بالمسجد الحرام ، وكان قد ثبت عليه الرفض بالمدينة النبوية ، فاعتقل وحُبس وفُتّشت خلوته (مسكنه) فوجد بها كتبًا للرفض وأشياء من الكفريات ، فعُزّر وطيف به على جمل شوارع مكة ، ثم نفي إلى جدة ومنها إلى اليمن[175] .

ومن مظاهر استفحال ظهور الرفض أن مُقدّم القافلة الرجبية[176] القادمة من المدينة النبوية إلى مكة سنة 892هـ/1486م هو الشريف إسحاق بن عبد الغفار القزويني – صهر التاجر المكي الكبير ابن قاوان – وكان إسحاق هذا لا يتردّد ولا يخفي إظهار تشيعه ورفضه بالمدينة المنورة ، حيث كانت له أقوال قبيحة في حقّ الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[177].

وقد دفع هذا الرفض المتزايد بمكة بالشيخ العلامة أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي المصري (ت974هـ/1567م) – المجاور بمكة منذ سنة 940هـ/1533م إلى حين وفاته – إلى تأليف كتابه الفذ " الصواعق المحرقة على أهل البدع والضلال والزندقة " للتحذير من هذه الطائفة الخبيثة التي تقدح في خيار أهل الإسلام من السلف الصالح ، كما أشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب[178].

المبحث الثالث : الأحوال الثقافية :

انتعشت الحركة العلمية في الحرمين الشريفين لأن حكام الدولة المملوكية اهتموا اهتمامًا بالغًا بالعناية بالأرض المطهرة ، فاهتموا بالأربطة وإنشاء المدارس وأكثروا من النفقات والأوقاف والصدقات المتزايدة وإرسال المبالغ الطائلة للصرف على قاطني الحرمين . هذه الكوكبة من الأعمال النيّرة هي مرتكزات أساسية لما لوحظ من تطور علمي شامل عاشته أرض الحرمين إبان العهد المملوكي من حيث توافر أصناف العلماء والفقهاء مما لا يحصيه عد ، الذين كانوا يعقدون مجالسهم للخاص والعام ، ونجد من بينهم نساء عالمات يجلس إليهن هؤلاء الآتون من كل فجّ عميق[179] .

ولعلّ هذا الازدهار العلمي لم يكن ليحدث لولا الدعم المالي الذي كانت تحظى به المؤسسات التعليمية وما وفره النظام الوقفي من مبالغ ساعدت على انتعاش الحياة العلمية وعلى ظهور كوكبة من العلماء والفقهاء . وكما ساندت الأوقاف هذه المدارس والمكتبات والعلماء ماديًا ، كان العلماء والفقهاء يشكلون السند التعليمي الذي مكّن للحركة العلمية فرصة للاستمرار والعطاء[180].

ولقد كان أساس الحركة العلمية بمكة مرتكزًا داخل المسجد الحرام خاصة والمدارس والأربطة المحيطة به . كما كانت هناك حلقات علم تُعقد في بيوت بعض العلماء والفقهاء[181] .وكان من أوائل من تصدّى للتدريس بالمسجد الحرام في حلقة تحت قبة زمزم ؛ حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما،حيث كان يعلم الحديث والتفسير خصوصًا[182]. ثم تولّى حلقته بعد وفاته سنة 78هـ/697م تلميذه التابعيّ ابن جريج[183] ، وهكذا دواليك لم ينقطع بثّ العلم بالمسجد الحرام إلى يومنا هذا .

ومنذ مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بلغ فيه العلماء والدارسون بمكة والمدرسون فيها عددًا عظيمًا تجاوز الألف ، كما تميّز هذا القرن بالمدرسة الفكرية التي تزعمها السخاوي بمكة والمدينة في مجاورته وزيارته القصيرة للمدينتين[184] . كما تميّز النصف الثاني من القرن التاسع الهجري وأوائل القرن العاشر بكثرة المقيدين بمكة وازدهار المدارس[185] .

كما أن المكتبات الموجودة سواء في المسجد الحرام أو في المدارس أو في الأربطة أسهمت في إثراء الحركة العلمية المكية وأيضًا في قصدها من العلماء وطلاب العلم بغية الظفر بمؤلف نادر[186] . فقد حوت مكتبات المدارس المكية في خزائنها مجلدات الكتب الموقوفة على مذهب معين ، وكان هناك تنافس بين المذاهب في ذلك ، وكان يمكن استعارة هذه الكتب من قبل الطلاب[187] .

ومن مظاهر هذا الانتعاش العلمي بمكة ؛ هو كثرة المدارس القائمة في هذه الفترة ، مع أن ظهور المدارس في مكة تأخر – كما هو حال كثير من البلاد الإسلامية – إلى الربع الأخير من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[188] . ولقد كان عدد المدارس قبل العصر المملوكي يزيد قليلاً عن سبعة مدارس لم تكن شهيرة كشهرة المدارس التي بُنيت في العهد المملوكي والتي زاد عددها على ثلاثة عشر مدرسة[189] .

ففي هذه الفترة تسابق ملوك الهند إلى بناء المدراس في الحرمين الشريفين لاسيما بمكة ، فالمدرسة الغياثية والكلبرقية والكنبايتية هي من أعمالهم ، بينما قام المماليك – سلاطين وأمراء وأعيان – ببناء المدارس الباقية كالباسطية والعُطيفية والزمامية ومدرسة قايتباي .

ففي سنة 831هـ/1427م أقامت الجالية الهندية بمكة مدرسة لهم هي المدرسة الكلبرقية (الكلبرجية) بالقرب من المسجد الحرام وذلك بأمر من سلطان كلبرقة شهاب الدين أبي المغازي أحمد شاه بن أحمد (ت838هـ/1434م) ، وكان ناظرها أحد شيوخ العلم الأحناف حيث يسكن بمنزل ملحق بالمدرسة ، وكانت لهذه المدرسة أوقاف متعددة من منازل وغيرها بجبل قعيقعان وغيره[190] . ولقد كانت المدرسة – في ابتداء أمرها – تُدرّس علوم الشريعة لمختلف المذاهب الفقهية الأربعة ، قبل أن تتخصص في تدريس الفقه الحنفي ، كما كان فيها حلقة لإقراء القرآن الكريم[191] .

وفي سنة 835هـ/1431م بدأ بناء المدرسة الباسطية المنسوبة من حيث الاسم إلى المشرف على بنائها وهو ناظر الجيش عبد الباسط بن خليل الدمشقي (ت854هـ/1450م) ، وذلك بأمر من مخدومه السلطان الأشرف برسباي ، وكمُلت عمارة هذه المدرسة سنة 836هـ/1432م[192] . وقد استمرّ عطاء هذه المدرسة حتى العهد السعودي حين هدّمت من أجل توسعة المسجد الحرام[193] .

وفي نفس السنة ؛ أنشأ الطواشي خشقدم بن عبد الله الظاهري الزّمام (ت839هـ/1435م) بالقرب من المسعى مدرسة الزمامي (أو الزمامية) ، وكانت مأوى للمنقطعين من الصوفية[194] ، حيث قرّر لهم أن يجتمعوا يوميًا بعد صلاة العصر ليقرؤوا القرآن ويهدون ثواب ذلك له[195] .

وفي سنة 861هـ/1456م عمّرت زينب بنت عليّ بن خاص بك زوجة السلطان المملوكي الأشرف إينال مدرسة العُطيفية[196]، وهي من حيث الاسم منسوبة لشريف مكة عُطيفة بن أبي نُمي (ت بعد سنة 789هـ/1387م)[197] ، غير أنه يُجهل السبب وراء هذه النسبة للشريف عُطيفة[198] .

وأما المدرسة الكنبايتية التي أنشأها سلطان كنباية بالهند غياث الدين محمد شاه بن ناصر الدين أحمد شاه سنة 866هـ/1461م بالقرب من باب الدريب من المسجد الحرام[199]. ومع أن المصادر التاريخية لم تذكر طبيعة المذهب الفقهي الذي يُدرّس بها ، إلا أن الغالب من الأمر أن الفقه الحنفي لغلبة هذا المذهب على أهل الهند .

وأشهر هذه المدارس ؛ المدرسة التي أنشأها السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي (ت901هـ/1495م) سنة 882هـ/1477م تحت إشراف وكيله التجاري الخواجا شمس الدين محمد بن عمر المعروف بابن الزمن . وبدأ تدريس الفقه بها على المذاهب الأربعة بعد سنة من ذلك ، وكانت تحتوي على 72 خُلوة (غرفة) ومكتبًا للأيتام[200] . وقد استمرّت في العطاء إلى أن استولى عليها أمراء الحج في العهد العثماني وجعلوها مقرًّا لسكناهم[201] .

وأما المدرسة الغياثية (البنجالية) المنسوبة إلى غياث الدين أعظم شاه بن إسكندر شاه سلطان البنغال ، فقد بدأ إنشاؤها سنة 813هـ/1410م وانتهى بعد سنة ، حيث درّس فيها قضاة مكة الأربعة المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة . وقد ضمّت المدرسة بين جنباتها ستون فقيهًا[202] . وكانت – ولفترة يسيرة – في حدود سنة 866هـ/1461م مقرًّا للصوفية ولقراءة القرآن على طريقة القوم[203] . وقد قام شريف مكة محمد بن بركات سنة 894هـ/1488م بهدمها وبناء مدرسة بديلة تحمل اسمه[204] .

وأخيرًا فإن المدرسة الجمالية (اليوسفية) أنشأها ناظر الخاص لدى السلطان المملوكي الأشرف برسباي ، الجمال يوسف بن عبد الكريم بن بركة السعدي ، المعروف بابن كاتب جكم (ت862هـ/1457م) سنة 857هـ/1453م . وكان يوسف هذا رحمه الله حريصًا على بناء المدراس حيث بنى أكثر من مدرسة بمصر والشام[205] .

ولقد كان الحصول على منصب في إحدى هذه المدارس يعتبر في حدّ ذاته مطمحًا اجتماعيًا يسعى إليه كثير من العلماء والفقهاء والقضاة[206] . غير أن وقفية بعض المدارس قد اشترطت أن يخلف الأبناء وظيفة الآباء في التدريس ، الأمر الذي أحال الوظيفة إلى منصب وراثي ربما يتولاه غير الأكفاء من الأبناء وحرمان ذوو الفضل من العلماء والفقهاء من الوصول إلى هذا المنصب مما يؤثر بالتالي على التحصيل العلمي للطلاب[207] .

كانت الدروس في المسجد الحرام يقرّرها فاعلوا الخير من الأمراء والأغنياء ، وعليهم تحديد نوع الدرس وتعيين المدرّسين ، وتحديد عدد الطلبة ، وتوفير احتياجاتهم عن طريق الوقف[208] . وكانت أبرز حلقات العلم بالمسجد الحرام تلك التي يتولاّها قاضي القضاة الشافعية ، وكانت متنوعة بين فقه وعقيدة وسيرة وغيرها ، غير أن قراءة صحيح البخاري كان أشهر هذه الدروس، وكانت هذه القراءة برئاسة قاضي قضاة الشافعية كصدقات جارية لأهل الجاه والسلطة بمصر كالسلطان وكناظر الخاص المشرف على أملاك السلطان وكبار شخصيات

الدولة وكذا كبار التجار[209] . وكان يُحتفل لذلك عند بدء القراءة وعند الختم . وكانت تُرصد أموالاً وقفية كأجرة لهذه القراءة . وكانت تقرأ عقب الختم قصائد في مدح النبيّ ﷺ ، وأشهرها قصيدة البردة للبوصيري . ومن الكتب الأخرى التي كانت تقرأ على قاضي قضاة الشافعية وناظر المسجد الحرام ، كتاب الشفاء للقاضي عياض[210] .

وأما في مجال القضاء الذي هو قرين العلم ؛ فقد كان بمكة منحصرًا في بيوتات عريقة شهيرة ، إذ كانت وظيفة القضاء من حيث الأهمية هي الثانية بعد الإمارة [211] ، فكان أكثر القضاة من آل الطبري وبني ظهيرة والنويريين وآل الفاسي ، وكان أكثرهم له منصبًا الطبريون لتنوع مناصبهم بين القضاء الشافعي والقضاء المالكي[212] . وكان القاضي الوحيد بمكة ممّن له الحق في رئاسة القضاء ومشيخة الحرم من المذهب الشافعي ، لغلبة هذا المذهب على أهلها ، ثم استقر معه قاضيان أحدهما مالكي والآخر حنفي. ولغلبة المذهب الشافعي فقد كانت الرئاسة في الإمامة لصلاة المغرب كذلك للقاضي الشافعي[213] . ولم يكن على رئاسة قضاء الحنابلة غير قاضي القضاة عبد اللطيف بن محمد بن أحمد الحسني (ت853هـ/1449م) وذلك سنة 809هـ/1406م ، حيث لم يتولى على القضاء حنبليًا قبل هذه السنة[214] لقلّة الحنابلة وندرتهم في الحرمين في هذه الفترة .

وكان الصراع على القضاء والتنافس عليه شديدًا بين هذه الأسر ، لاسيما بين النويريين وبني ظهيرة[215] ، ولهذا فقد اجتهد عميد أسرة آل ظهيرة قاضي قضاة الشافعية أبو السعادات ابن ظهيرة على تنصيب قرابته في الوظائف الدينية وعلى رأسها القضاء ؛ فقد جعل ابنه محب الدين أحمد على نيابة رئاسة القضاء بمكة وجعل ابن أخيه ابا البركات محمد على القضاء والخطابة بجدة[216] .

وكان أول من تولى القضاء من هذه الأسر ؛ شهاب الدين أحمد بن ظهيرة سنة 718هـ/1318م ثم كان محب الدين ابن ظهيرة هو رابع قضاة هذه الأسرة منذ سنة 817هـ/1414م ، حيث تولى منهم خلال هذه الفترة ثمانية من القضاة الشافعية آخرهم أبو السعود ابن برهان الدين ابن ظهيرة[217] ، وواحد تولى قضاء المالكية هو ظهيرة ابن أبي حامد ابن ظهيرة [218] . وكان القاضي برهان الدين ابن ظهيرة أشهر قضاة هذه الأسرة وأكثرهم نفوذًا وأوسعهم صلاحيات ، فقد كان على رأس القضاء الشافعي ونظارة المسجد الحرام والإشراف على الصدقات السلطانية[219] سنين طويلة .

تجدر الإشارة إلى إن محب الدين ابن ظهيرة (الحفيد) كان في سجن القاهرة عندما فتح السلطان العثماني سليم الأول مصر سنة 923هـ/1516م ، فقام السلطان بإطلاقه من حبسه فأشار عليه القاضي محب الدين أن يكتب إلى شريف مكة بإظهار الطاعة ولا حاجة لأن يُرسل حملة عسكرية ، وهو ما كان[220] .

ومن أسر العلم العريقة بمكة في هذه الفترة ؛ عائلة الطبري (أو الطبور كما يناديهم أهل مكة) التي تبوأ أفرادها منصبي القضاء والخطابة وأحيانًا الإمامة بالمقام الشافعي منذ سنة 673هـ/1274م ؛ فقد كان إمام هذا المقام أواخر القرن التاسع

الهجري/الخامس عشر الميلادي هو محب الدين محمد بن محمد بن أحمد ، أبو المعالي ابن أبي السعادات ابن المحب الطبري[221] ، وكان والد جدّ هذا الأخير وهو أبو العباس محب الدين أحمد بن عبد الله بن محمد (ت694هـ/1292م) شيخ الحرم وشيخ الشافعية ومحدّث الحجاز في وقته[222] ، وهو ثالث قضاة الشافعية من هذه الأسرة[223] ، حيث انقطع القضاء فيهم لما يقرب من القرن من الزمن ، غير أن خطابة المسجد الحرام والإمامة بالمقام لم تزل مخصوصة بهم ، وكلّ مَن كمُل منهم باشرها ولا يحتاج إلى إذن جديد لوقوع الإذن المطلق لهم . وما زالت المناصب العالية عندهم يتلقونها كابرًا عنكابر من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة . وكانت الخطابة من قديم تنتقل في ثلاثة بيوت أقدمهم بيت الطبري ثم الظهيريون ثم النويريون[224] .

وأما عائلة النويري فقد عُرفوا بالخطابة عن المذهب الشافعي بالمسجد الحرام ، إلى جانب تولّي إمامة المقام المالكي كالشيخ أبي بكر بن محمد النويري (ت870هـ/1465م) ، بل تولّى بعضهم الحُسبة كالشيخ أحمد بن محمد بن أحمد النويري (ت866هـ/1461م) [225] ، هذا فضلاً عن تولّي القضاء عن مذهبي الشافعية والمالكية . وقد تولّى قاضيان شافعيان من أسرة النويري ثم تولى الثالث قضاء المالكية وهو شهاب الدين النويري منذ سنة 827هـ/1423م[226] . ثم تولى أبو اليُمن النويري قضاء الشافعية بمكة وجدة ثم صار ناظرًا وخطيبًا للحرم واستمر كذلك إلى وفاته سنة 853هـ/1449م[227] . وكان آخر هذه الأسرة على القضاء هو نور الدين ابن أبي اليمن ، حيث انقطع فيهم القضاء بينما استمرت نظارة الحرم فيهم إلى نهاية حكم الدولة المملوكية [228] . ولكثرة أهل العلم من هذه الأسرة فقد كان يحدُثُ أحيانًا تنافس بين أفرادها حول هذه الوظائف ، كقضية الخلاف في مَن يتولّى إمامة المالكية بالمسجد الحرام داخل عائلة النويري ، والتي أثيرت سنة 837هـ/1433م ، فقام بمهمة النيابة عن الإمام والصلاة بالمالكية فقيه مغربي يُسمّى يونس ، وهذا حتى يُبتّ في موضوع الخلاف من طرف قضاة مكة [229] . وعلى العموم فقد أحصى الشيخ المعلمي من فقهاء هذه الأسرة على مدى قرن من الزمان ؛ حوالي عشرين من الرجال وسبعة من النساء[230].

وأما عائلة بني ظهيرة المخزوميين ، فقد كانوا هم وبيت الطبري وبيت النويري القائمين بالخطابة بالمسجد الحرام لا يشاركهم فيها غيرهم إلى حدود سنة 1041هـ/1631م[231]. وقد أشرنا سالفًا إلى عمدة عائلة بني ظهيرة ورأس سنامها ؛ وهو الشيخ أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن عليّ بن ظهيرة ، الذي كان إمامًا وخطيبًا وناظرًا للمسجد الحرام ، وعلى رأس القضاء الشافعي لمدة ثلاثين سنة [232] . وقد وصفه أكثر من ترجم له بأن رئاسة العلم بالحجاز انتهت إليه في عصره[233]. وقد أحصى الشيخ المعلمي عدد فقهاء هذه الأسرة القرشية المكية حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي ، فزادوا عن خمسين فقيهًا[234] ، آخرهم الشيخ محمد بن يحيى بن ظهيرة (ت1271هـ/1854م) الذي مكث في الإفتاء أكثر من ثمانين سنة ومات وله مائة وبضع عشرة سنة[235] .

ومن أشنع ما أصاب أهل العلم بمكة في هذه الفترة ؛ هو مقتل الشيخ العلامة قاضي قضاة الشافعية جمال الدين أبو السعود محمد بن إبراهيم بن عليّ بن ظهيرة ، عالم الحجاز وابن عالمه . درّس وأفتى وناب عن والده في القضاء بمكة وعن عمه في قضاة جدة ، ثم استقر بعد وفاة والده في القضاء استقلالاً وفي التدريس وفي جميع الوظائف ، وأعطي مُرتّب والده ومُرتبًا لجميع إخوته بمرسوم سلطاني من القاهرة . واستمر كذلك إلى أن قبض عليه الشريف بركات بن محمد بن بركات حين بلغه أنه سعى في عزله وتنصيب أخيه الجازاني ، فأثبت عليه أمام الشهود من أنه أعان أخاه بنفقة وسلاح ، فأمر الشريف بنفيه إلى القنفذة على ساحل البحر الأحمر مع مصادرة جميع أمواله ، ثم أمر بتغريقه في البحر في يوم 11 ذو الحجة سنة 907هـ/1501م وأولاده وعياله في قارب صغير ينظرون إليه[236] .

المبحث الرابع : الأحوال الاقتصادية :

لما كانت مكة في وسط الحجاز ، كانت لها أهميتها بكونها مركزًا تجاريًا هامًا ، حيث ارتبطت بعلاقات تجارية في الجاهلية والإسلام مع معظم دول العالم القديم كاليمن والعراق والشام والهند وحتى الصين ، وكان خط التجارة الرئيسي الذي توسطته مكة بين اليمن والشام من أقدم خطوط التجارة وأكثرها شهرة في العالم القديم[237] . وقد اعتمد اقتصادها على التجارة بالدرجة الأولى[238] . وكانت هذه التجارة منذ القديم متنوعة ، غير أنها في القرن التاسع الهجري صارت مكة مركزًا لتجارة الكارم[239] الواردة بطريق البرّ من عدن وجدة والشام، ومنفذها إلى البحر الأحمر ميناء جدة ، وكان الطريق البرّي بمكة تحرسه الدوريات لوقوع معظمه في نطاق سلطنة المماليك[240] .

ولا ريب أن سيطرة المماليك على الحجاز كان يخدم تجارتهم المعتمدة أساسًا على البضائع الهندية واليمنية ، وهي في الغالب بضاعة الكارم التي يقوم المماليك بتصديرها إلى أوروبا . لهذا؛ فقد صارت العلاقة بين سلطة القاهرة والحُكم بمكة علاقة اقتصادية في مجملها ، " وانعكست الحقائق وصار المال يحمل من مكة إلى مصر ويُلزم أشرافها بحمله "[241] ، وفي هذا المعنى يقول المقريزي كذلك : " إن العالم لم يزل من قديم الدهر في الجاهلية والإسلام أن الملوك تحمل الأموال الجزيلة إلى مكة لتفرّق على أشرافها ومجاوريها ، فانعكست الحقائق وصار المال يُحمل من مكة ويُلزم أشرافها بحمله "[242] .

وقد ساعد على ازدهر تجارة مكة الداخلية أهميتها الدينية بوجود الكعبة المشرفة وبقية الأماكن المقدسة كمنى وعرفات حيث يتجمع عشرات الآلاف من المسلمين من جميع أنحاء المعمورة ، فيعملون على تنشيط سوقها التجاري الذي تتجمع فيه مختلف البضائع القادمة من اليمن والهند والصين والشام ومصر والحبشة[243] ، فقد كانت ترد إلى أسواق مكة كميات كبيرة من الأقمشة القطنية والحريرية من الهند ، وكانت المناطق الزراعية القليلة المحيطة بمكة تزود البلد بالمحصولات الزراعية والمنتجات الحيوانية وبالمقابل يشتري هؤلاء السلع التي لا تتوفر إلا بمدينة مكة ، لأن جميع القرى المجاورة لمكة كان اعتمادها اعتمادًا كليًا

على سوق مكة في تصريف محصولاتها الزراعية أو الصناعية مثل مدينة الطائف الزراعية[244] .

ومع أن أسواق مكة كانت مزدهرة كامل أيام السنة ، إلا أن ذروة البيع والشراء تزداد في موسمي رجب والحج ، وذلك بعد وصول القوافل الرجبية من مصر والمدينة ووصول وفود الحجيج من مختلف أنحاء العالم الإسلامي[245] ؛ فقد كان يباع بمكة في موسم الحج ما لا يباع في غيرها على مدى أشهر . وسوق منى من الأسواق العامرة بمكة أيام التشريق الثلاثة ، حيث يباع فيها الغالي والرخيص لأنها مجمع أهل الحج من أنحاء المعمورة[246] . ولشدة اعتماد الاقتصاد المكي على موسم الحج ، فقد كان أمير مكة يُرغم – في الغالب – الحجاج على البقاء بمكة بضعة أيام لينفق الحجاج ما معهم من مال ويشترون ما يريدون من أسواق مكة والمدينة[247] ، لأن التجار في العصر المملوكي كانوا يرافقون في الغالب قوافل الحجيج .

ولقد اعتمد اقتصاد مكة في هذه الفترة – وفي معظم الفترات قبلها وبعدها تقريبًا – على ثلاثة موارد مالية متجدّدة كل عام ، هي : ما ينفقه الحجاج في الموسم من مصاريف إيجار وشراء ومن بضائع يجلبوها للتجارة . والمورد الثاني هو ما يؤخذ من التجار الواردين إلى مكة من الهند واليمن وغيرها من البلدان . وثالث هذه الموارد هي الأوقاف والصدقات[248] ، وكانت الصدقات والهبات تُحمل في الغالب في موسم الحج من كل عام ، وهي من أهمّ ما يعيل الأسر المكية ويُنعش النشاط الاقتصادي في البلد . ومن هنا ندرك أنه بسبب الموارد المالية الكبيرة التي ترد مكة من خلال الموارد الثلاثة المذكورة ، ضخامة الثروات التي كان يتمتع بها المكيون أيام الحكم المملوكي .

غير أنه لا يستقيم بحث ولا تتجلى حقيقة حول اقتصاد مكة دون التطرق إلى ذكر مدينة جدة ودورها في الاقتصاد المكي ؛ فقد كانت جدة – ولا تزال – مركزًا تجاريًا رئيسيًا بالحجاز ، وهي محطة عبور وإقامة على طريق التجارة البحرية والبرية إلى مكة ، فهي محطة للسفن القادمة من الهند وعدن واليمن وعيذاب والقلزم (البحر الأحمر) وأيلة (خليج العقبة) وغيرها[249] . وتصلها السلع من الحبشة وشرق إفريقيا وبلاد الزنج (السودان) ، وأما سلع أوروبا فتصلها عن طريق مصر ودمشق[250] . ولم تصبح جدة ميناءً لمكة فحسب بل وللحجاز جميعه ، وصارت من أكبر الموانئ في الشرق كله قبل القرن التاسع الهجري[251] .

وكان يصل ميناء جدة من المراكب التجارية ما يزيد عن المائة مركب في السنة الواحدة . ويقال أن متحصل الموجبات والرسوم التي يأخذها صاحب مكة مائتا ألف دينار وربما يزيد وينقص[252] . ولهذا وصف الحميري جدة بأنها ليس – بعد مكة – مدينة من مدن الحجاز أكثر من أهلها مالاً[253] .

وكان مسؤولو السلطة بمكة وكذا الأهالي يتتبّعون بدقة ولهفة أخبار تحرك المراكب التجارية القادمة إلى جدة من الهند واليمن[254] . وكانت أسعار المواد الإستهلاكية الأساسية مرتبطة ارتباطًا قويًّا بأخبار هذه المراكب ؛ فقد زادت – على

سبيل المثال – أسعار السلع بمكة سنة 890هـ/1484م ثم انخفضت تدريجيًا عند بدأ قدوم المراكب التجارية من اليمن إلى ميناء جدة. وكان تأخر هذه المراكب – كما وقع في السنة التالية بعدها – قد أدّى بالناس إلى أن جعلوا الخبز من الفول[255] .

وبدأ الازدهار الحقيقي للاقتصاد المكي لما تحول تجار الهند إلى النزول بمراكبهم بميناء جدة بدلاً عن ميناء عدن ، بسبب ظلم صاحب عدن لهم وإفراطه في مكسهم ومصادرة بضائعهم ، وقد استغل السلطان الأشرف برسباي سنة 828هـ/1424م ذلك وشارك شريف مكة في تحصيل عشور التجارة عن البضائع الواردة إلى جدة ، فحصّل أكثر من سبعين ألف دينار فطاب له ذلك فجعل جدة تابعة للسلطان مباشرة وعيّن فيها شادًّا (أي ناظر جدة) [256] ليتوجه كل عام إبان الموسم ليحصّل هذه المكوس وينبّه على التجار أن لا يسافروا ببضائعهم إلى الشام وإنما يتوجهوا إلى مصر مع الحجاج لكي تجرّد بضائعهم وتمكّس[257] .

وقد ترسّخ ازدهار تجارة جدة منذ سنة 838هـ/1434م ، بعد استفحال امتناع التجار عن الرّسو في موانئ اليمن بسبب ظلم حكام اليمن من الأسرة الرسولية وفرضهم ضرائب باهضة على التجار ، فصارت جدة مستودعًا للتجارة الهندية المرغوبة في جميع أنحاء العالم القديم في ذلك العصر[258] ، وصار " نظر جدة " وظيفة سلطانية . ولما تيقن السلطان المملوكي من استمرار تدفق البضائع الهندية إلى ميناء جدة وإمكانية استغنائه عن التجارة اليمنية التي كانت قبل هذا التاريخ عصب الحياة لتجارة جدة ، قام بمصادرة بضائع تجار اليمن القادمين إلى جدة بسبب الخلافات السياسية القديمة بين المماليك وسلطان اليمن ، وهو الملك الأشرف الثالث إسماعيل بن منصور الرسولي[259] (ت842هـ/1438م) .

وقد اشتدّ طمع السلطان برسباي بتجارة التوابل الهندية (الكارم) فاحتكر مادة الفلفل التي هي سلعة نادرة[260] آنذاك ، حيث ألزم التجار ببيعه بسعر محدّد ثم اشتدّ الأمر فقرّر ألاّ يبيع هذه البضائع – وكافة التوابل – ولا يشتريه إلا السلطان[261]

وهذا ما أدّى إلى تذمر تجار مصر والشام من مزاحمة السلطان وكبار الدولة لهم في تجارتهم مع الهند ، فقام بعض التجار بمخالفة القرارات السلطانية ونزلوا ببضاعتهم بميناء عدن ، فجاءت العقوبة شاملة لكل تجار مصر والشام القادمين بالبضائع العدنية أن تُضاعف عليهم الضريبة مرتين ، وإن كان التاجر يمني فتصادر بضاعته كلها . ومن العجيب أن هذه المراسيم قُرئت بالمسجد الحرام اتجاه الحجر الأسود[262] .

وفي عهد السلطان الأشرف قايتباي (ت901هـ/1495م) قاسم أمير مكة في عشور تجارة اليمن ، ثم انتهج كسلفه سياسة الاحتكار سنة 881هـ/1476م فاشترى من تجار الهند بضاعتهم من الفلفل بسعر العام الماضي غصبًا[263] . وعندما كانت تشتد الأزمة الاقتصادية بالقاهرة أو يحتاج السلطان المملوكي إلى أموال ، كان يُرسل بالمراسيم إلى مكة لاحتكار التجارة في المواد الأولية الأساسية

كالسمن والعسل والقمح بحيث لا يُباع إلا من طرف وكلاء لسلطان ويُمنع التجار أن يجلسوا لبيع هذه المواد بالسوق ، كما حدث في ربيع الثاني من سنة 890هـ/1484م[264] .

وعليه ؛ فإن الاقتصاد المكي كان كثيرًا ما يتأثر سلبًا بسبب الرشوة والاحتكار ، ومثال ذلك ما وقع من احتكار خطير من طرف الباعة المصريين المستوطنين بمكة ، حيث ورد مرسوم سلطاني بمنعهم من مزاولة عملهم بالحوانيت التي بالمسعى بسبب احتكارهم السلع وتلقيهم الجلب ، ثم ورد مرسوم سلطاني آخر بإخراجهم من البلد . وقد كان هؤلاء الباعة تحت حماية فرقة من المماليك المستقرة بمكة والذين كانوا يأخذون الرشوة من الباعة[265] .

وبخصوص فئات كبار التجار بمكة باعتبارها مدينة مزدهرة التجارة بحكم موقعها الديني والاستراتيجي ؛ حيث كانت أسواقها متنوعة بين المحلية والموسمية والسنوية ؛ فقد برزت بيوتات عربية وأخرى أعجمية سيطرت على النشاط التجاري المكي ، وكان أفرادها من المقربين من حكام مكة وكبار أعيان الأشراف ، لهذا نجد أن كان أكثر أعيان التجار كانوا من قريش ، كموسى بن عليّ الهاشمي (ت785هـ/1383م) وعليّ بن محمد بن حسب الله المعروف هو ووالده بالزعيم (ت816هـ/1413م) الذي ترك له والده أكثر من ثلاثة ملايين درهم ، وكان مقربًا إلى الحكام بما كان يقدمه من أموال لهم[266] . ومنهم من جمع بين العلم والتجارة فاشتهر باتساع ثروته وجاهه كالقاضي المحدث جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة القرشي (ت817هـ/1414م)[267] . وهناك من القرشيين كذلك ظهيرة بن حسين بن ظهيرة (ت819هـ/1416م) وعليّ بن هاشم بن عليّ (ت826هـ/1422م) . وأما من الأعاجم فقد كانوا أكثر عددًا وأوسع تنوعًا في أصولهم العرقية، فمنهم – على سبيل المثال لا الحصر – محمد بن عليّ الأصفهاني (ت799هـ/1396م) تاجر العطارة المشهور والمعروف بالبرّ والاحسان[268] ، وعبد الرحمن الهندي (ت827هـ/1423م) المشتهر بالخير والدين ، وكان قد جاور بمكة أكثر من خمسين سنة وبها مات[269]. والخواجا مصطفى الرومي المعروف بالذبيح (ت875هـ/ 1470م) فقد خلّف بعد وفاته ثروة تزيد عن عشرين ألف دينار ذهبي[270] .والخواجا كمال الدين محمود بن محمد الكيلاني المعروف بقاوان (ت886هـ/1481م) ، وزير أحد ملوك الهند وتاجر الكارم (التوابل والبهارات) الشهير ، الذي يكفي لمعرفة سعة ثرائه ، معرفة أنه لُقب بمكة وخارجها بملك التجار[271] .

وأما بخصوص المكوس[272] (أو الضرائب) ؛ فقد صار المكس على التجارة منذ سنة 722هـ/1321م مقرّرًا لا يجادل أحد في أحقية الشريف في تحصيله بجدة ، إلا أن الصراع بدأ حول مقداره ونصيب كل أمير من الأمراء فيه ، وذلك قبل أن يتدخل السلاطين ليطالبوا بنصيبهم هم أيضًا[273] . وكان كثيرًا ما تأتي الفتاوى في تجويز المكوس جاهزة من القاهرة ، كما حدث سنة

843هـ/1439م حيث أرسلت مراسيمها إلى المسجد الحرام لتقرأ باتجاه الحجر الأسود[274] ! .

وقد أسقط السلطان الفاتح صلاح الدين الأيوبي الضرائب عن الحجاج وعوّض شريف مكة ألفي دينار وألف إردب من القمح، إضافة إلى منحه إقطاعات بصعيد مصر واليمن[275]. ثم أسقط السلطان الظاهر بيبرس الضرائب عن الحجاج والتجار ورتّب لأمير مكة عشرين ألف درهم ، كما سُلّمت أوقاف الحرمين التي في بمصر والشام لنوابه بهما[276] .وقد أسقط الملك الناصر محمد بن قلاوون (ت741هـ/1340م) جميع الضرائب عن الحرمين الشريفين وعوّض أميري مكة والمدينة عنها إقطاعات بمصر والشام[277] .

المبحث الخامس : المغاربة المجاورون وأثرهم في الحياة العلمية المكية في القرن التاسع الهجري :

شكّل المجاورون[278] على مرّ الزمن نسيجًا اجتماعيًا قويًا داخل المجتمع المكي والمدني ، وكان كثير منهم يستقرّ بالحرمين ويُنجب الذرية التي تتناسل بعده سنين طويلة ، حتى تصير جزءً متجانسًا مع المجتمع ، وهو ما يفسّر التنوع الشديد للنسيج البشري المكي والمدني إلى الوقت الحالي .

وقد هيّأت الأوضاع الاقتصادية وحتى الأمنية التي سادت مكة في العصر المملوكي جوًّا من الاستقرار والرخاء والطمأنينة جعلت كثيرًا من أبناء الأمة الإسلامية يسارعون إلى المجاورة بالحرم الشريف فترات متنوعة من الزمن بين طولٍ وقصر ، حتى إنه لا يكاد يخلو مصدر من مصادر التاريخ الإسلامي في هذه الفترة إلا وأشار من قريب أو بعيد إلى مجاورٍ مِن العلماء أو العباد أو الأعيان أو التجار . وربما كان المجاورون قلة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، غير أن عددهم بدأ في الازدياد منذ القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي حتى صاروا جزءً كبيرًا من المجتمع المكي ، وربما عاد ذلك إلى ما قام به السلاطين من إنشاء المدارس والأربطة والزوايا [279] .

ولقد امتدّ تأثير المجاورين في مكة إلى الحياة العامة ، سواء منها ما يتعلق بالجوانب السياسية أو المناحي الحضارية[280] ، ولا شكّ أن الجانب العلمي هو من أهمّ المناحي الحضارية هذه . فقد كان حملة العلم – سواء كانوا من العلماء أو من الطلاب – من أبرز من رام – خلال عصور التاريخ المختلفة – المجاورة في مكة ، حيث وعى هؤلاء أكثر من غيرهم فضل المجاورة وقيمتها ، كما أدركوا أهميتها التي لا تداني في حياتهم العملية وأثرها في توسيع ثقافتهم . ولعلّ ابن منظور رحمه الله لما عرّف المجاورة بأنها " المقام مطلقًا بمكة والمدينة غير ملتزم بشرائط الاعتكاف الشرعي "[281] ، أراد أن يُبيّن أن المجاورين لم يقصدوا بجوارهم مجرّد العبادة الخالصة من صلاة وذكر ، بل إن الجانب العلمي هو لبّ هذه المجاورة لما وقرته البيئة المكية – ومثلها المدنية – من جوّ مناسب لطلب العلم وتعليمه .

إن جهود المجاورين الثرّة منذ العصر الأيوبي صارت مرتكزًا مهمًا وأساسًا قويًا اتكأت عليه الحياة العلمية التي ازدهرت في مكة إبان العصر المملوكي

، ولقد شكّلوا العمود الفقري في دعم الحركة العلمية ، وذلك من خلال عقد المجالس والدروس العلمية المتنوعة في المسجد الحرام وفي المدارس والأربطة[282] . ولقد كان تأديب الأطفال بالمسجد الحرام يكاد يكون مقتصرًا على المشايخ المجاورين حيث كانت مجالسهم بالقرب من أحد أبواب المسجد الحرام [283] ، ولا شك أن المجاورين المغاربة كان لهم في ذلك الحظ الأوفر .

ولو رمنا نعدّد جهود هؤلاء المجاورين دون تحديد موطنهم ، لاحتجنا في ذلك إلى كتابة مجلدات، لكن في هذه العجالة نتطرق إلى جهود المجاورين المغاربة في القرن التاسع الهجري فقط ، إذ هم بدورهم قدّموا الكثير للحياة العلمية المكية خلال التاريخ الإسلامي الطويل . فهذا تقي الدين الفاسي (ت832هـ/1428م) – وإن كان هو ووالده وجده من مواليد مكة ، إلا أن أصل الجوار ينطبق عليه وعلى كل أهل بيتهم العريق – قد قدّم للحياة العلمية المكية جهودًا واسعة بما تركه من تآليف قيّمة سائرة ، وبما خلّفه من مكتبة [284] عامرة كانت تحتوي عددًا كبيرًا من نفائس الكتب[285].

وهذا ابن عزَم – مؤلف المخطوط الذي بين الأيدي للتحقيق – كان من مجاوري المغاربة ، وقد ساهم في نشر العلم بما احترفه من وراقة ، وهو بدوره قد تتلمذ على مجموعة من مجاوري علماء المغاربة والأندلسيين ، من أمثال العلامة محمد الأزموري المغربي (ت860هـ/1455م) ، وصهره محمد الرعيني الأندلسي المعروف بالحطّاب (ت بعد 934هـ/1527م)[286] ، وغيرهما .

الخاتمة :

من خلال هذه الدراسة التعريفية بمخطوط " دستور الإعلام بمعارف الأعلام " ومؤلفه الشيخ المؤرخ " محمد بن عمر بن عَزَم " يتبيّن لنا مدى أهمية هذا المخطوط لتحقيقه وإخراجه إلى النور بعدما رأينا أنه كتاب يتناول بالترجمة لأكثر من ثلاثة آلاف عَلَم من أعلام الجاهلية والإسلامية على مدى إحدى عشر قرنًا من الزمان ، وقد تمّ تأليفه وإثرائه على مدى ثلاثة قرون ابتداء من مؤلفه الأصلي ابن عَزَم (ت891هـ/1486م) وانتهاءً بالمؤرخ الشريف ابن حمزة (ت1120هـ/1708م) ، كما رأينا في هذه الدراسة من خلال الاطلاع على الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لمكة في القرن التاسع الهجري ، مدى العلاقة الوطيدة بين السلطة المملوكية بالقاهرة وسلطة الشريف بالحجاز ، حيث التقت مصلحة الطرفين في تعزيز هذه العلاقة من أجل مكاسب سياسية ومالية كانت ضرورية للطرفين لبقاء السيطرة على أقدس بقعة في قلوب ووجدان المسلمين . كما لاحظنا جهود المغاربة المجاورين وأثرهم في الحياة المكية العامة ولاسيما الحياة العلمية في هذه الفترة ، وبالأخص في مجال الوراقة ونسخ الكتب وبالتالي انتشارها وانتعاش العلم بسببها .

الهوامش :

(1) الأعلام ، (316/6) .
(2) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص753 .
(3) البغدادي : هدية العارفين ، (59/2) .
(4) بروكلمان : تارخ الأدب العربي ، ص222 .
(5) سركيس : معجم المطبوعات ، (198/1) .
(6) الزركلي : الأعلام ، (315/6) ، (305/8) .
(7) كحالة : معجم المؤلفين ، (90/11) .
(8) الجينيني : هو إبراهيم بن سليمان بن محمد الجينيني الأصل ثم الدمشقي الحنفي (ت 1108هـ/1696م) ؛ من أهل بلدة " جينين " بفلسطين . كان عالما أديبًا مؤرخًا ، من أنجب من تلاميذ مفتي الحنفية بالشام خير الدين الرّملي . وكانت له معرفة بأسماء الكتب ومؤلفيها وإحاطة بالأسماء والألقاب والوفيات والأنساب التارخية ، وكتب كتبًا عديدة بخطه ، وألف بضع رسائل تاريخية ، منها إكماله لتاريخ ابن عَزَم . مات بدمشق في السنة المذكورة عن 68 سنة . انظر عنه : المرادي : سلك الدرر ، (17/1) . إسماعيل باشا : هدية العارفين ، (19/1) . التونكي : معجم المصنفين ، (148/3) . الزركلي : الأعلام ، (41/1) . كحالة : معجم المؤلفين ، (36/1) .
(9) رمز لإضافته في الحاشية بالرمز " هـ " .
(10)حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص 753 . وقد وهم البعض ممّن صنّف وفهرس للمخطوطات ، أن ذيل الجينيني هو كتابٌ مستقل يُشبه بقية الذيول التي يُترجم أصحابها لمن أتى بعد مؤلف الأصلي من الأعلام ، لاسيما بعد اغترارهم بعنوان أحد نسخ هذا الذيل ، وهو مخطوط محفوظ بمكتبة كلية الآداب والمخطوطات بالكويت ، برقم ب 146 مج 2 ، حيث كُتب على غلافه " تكميل دستور الإعلام بمعارف الأعلام " ، وهو نسخة مشابهة لما بين الأيدي من الدستور .
(11)النهروالي : هو أبو عبد الله محمد بن علاء الدين أحمد بن شمس الدين محمد بن أحمد الهندي الأصل المكي الحنفي (ت990هـ/1581م) ؛ الفقيه الأديب المفسر ، مفتي الحنفية بمكة في عصره ، وأحد أبرز مؤرخي مكة حيث ألّف كتبًا تاريخية كثيرة . توفي بمكة في السنة المذكورة عن 73 سنة . انظر في ترجمته : العيدروس : النور السافر ، ص203 . حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص373 . ابن العماد : شذرات الذهب ، (420/8) . العصامي : سمط النجوم العوالي ، (94/3) . الشوكاني : البدر الطالع ، (57/2) . إسماعيل باشا : هدية العارفين ، (329/2) .
(12) البصروي : نسبة إلى بصرى الشام ، وهو زين الدين بن محمد بن أحمد بن محمد الشافعي الدمشقي ، الشهير بالبصروي (ت1102هـ/1690م) ؛ المؤرخ الفقيه الأديب . درّس بالمدرسة الصلاحية بالقدس ثم صار إمامًا للصدر الأعظم مصطفى باشا الكوبريلي بالقسطنطينية . توفي البصروي رحمه الله تعالى في طريق عودته من الجهاد بأوروبا الشرقية عن 63 سنة ودُفن بالقرب من بلغراد . انظر : المحبي : نفحة الريحانة ، (224/1) . المرادي : سلك الدرر ، (252/1) .
(13) ابن حمزة : هو برهان الدين إبراهيم بن محمد بن محمد بن محمد بن حمزة الحنفي الحراني الأصل الدمشقي (ت1120هـ/1708م) ؛ المحدث النحوي أحد صدور مدينة دمشق . تولى نيابة محكمة الباب الكبرى بدمشق والقسمة العسكرية ونقابة الأشراف مرات عديدة ،

ثم وُلّي نقابة الأشراف بمصر سنة 1093هـ/1681م . وكان قد درّس من قبل بدمشق بالمدرسة المارداني وبالمدرسة الصالحية وبالمدرسة الأمجدية وبالمدرسة الجوزية . مات بعد عودته من الحج في صفر من السنة المذكورة عن 66 سنة . انظر ترجمته في : المحبي : نفحة الريحانة ، (45/2) . المرادي : سلك الدرر ، (45/1). إسماعيل باشا : هدية العارفين ، (100/1) . إيضاح المكنون ، (174/1) . التونكي : معجم المصنفين ، (391/4) . يوسف سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ص88 . الزركلي : الأعلام ، (68/1) . كحالة : معجم المؤلفين ، (105/1) .

(14) الغزي : ديوان الإسلام ، (229/1) .

(15) ستأتي ترجمته المفصلة لاحقًا ضمن هذا المقال .

(16) شذرات الذهب ، (395/5) .

(17) انظر على سبيل المثال : الضوء اللامع ، (4/1) ، (132/1) ، (228/1) ، (64/2) ، (116/2) ، (433/2) ، (174/3) .

(18) سركيس : معجم المطبوعات ، (198/1) .

(19) الأعلام ، (36/7) .

(20) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط3 ، 1405هـ/1985م .

(21) يدلّ على ذلك هو أن هذه النسخة كان الفراغ نسخها سنة 1123هـ/1711م ، أي بعد 15 سنة من وفاة المؤرخ الجينيني وسنتين من وفاة المؤرخ ابن حمزة ، وهما مَن شاركا في إثراء وإخراج هذا الكتاب . وعليه فالغالب أن هذه النسخة مأخوذة عن النسخة الأصل التي نسخها الجينيني والتي بدورها كان الجينيني قد نسخها عن نسخة القطب النهروالي ، وهذا الأخير كان قد أوضح أنه أضاف زيادات على النسخة الأم التي تركها المؤلف ابن عزَم بعد وفاته بمكة المكرمة .

(22) لعلّ الناسخ أراد من هذا النص أن يعقد للقارئ مقارنة وجيزة بين كتاب " دستور الإعلام " وكتاب " المنتهى في وفيات أولي النهى " لحمزة الحسيني المشار إليه في النص أعلاه .

(23) انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، (10/3) . السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان ، ص107 . الزركلي : الأعلام ، (276/2) .

(24) انظر مصادر ترجمته في : النجم عمر ابن فهد : الدر الكمين بذيل العقد الثمين ، (249/1) . السخاوي : الضوء اللامع ، (431/4) . وجيز الكلام ، (987/3) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص753 . ابن الغزي : ديوان الإسلام ، (67/1) . إسماعيل باشا : هدية العارفين ، (59/2) . بروكلمان : تارخ الأدب العربي ، ص222. عبد الله المعلمي : أعلام المكيين ، (136/1) . الزركلي : الأعلام ، (315/6) ، (305/8) . كحالة: معجم المؤلفين ، (90/11) . لطفي عبد البديع : فهرس المخطوطات المصورة ، (132/2) . محمد الحبيب الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ، ص163 . عبد العزيز السنيدي : الوراقون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة المكرمة ، ص51 .

(25) كما ضبطه معاصراه وصاحباه النجم عمر ابن فهد في الدر الكمين ، (249/1) والسخاوي في الضوء اللامع ، (230/4) .

(26) نسبة إلى الصحابي الجليل أبي رقية تميم بن أوس بن خارجة الداري اللخمي المدني (ت40هـ/660م) : كان نصرانيًا فأسلم سنة 9هـ/630م ، وأقطعه النبي ﷺ قرية حبرون بفلسطين . انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان ﷺ فنزل بيت المقدس . وهو أول من أسرج

السراج بالمسجد الأقصى ، وكان راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين . انظر : ابن عبد البرّ : الاستيعاب ، (193/1) . ابن حجر : الإصابة ، (381/1) .

(27) لم تحدّد مصادر ترجمة المؤلف بلدته بالاسم سوى أنه تونسي ، وقد يُراد بهذا الاطلاق عاصمة البلاد آنذاك .

(28) النجم عمر ابن فهد : الدر الكمين ، (249/1) . السخاوي : الضوء اللامع ، (431/4) .

(29) النجم ابن فهد : الدر الكمين ، (1210/3) .

(30) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (650/4) .

(31) السخاوي : الضوء اللامع ، (428/7) .

(32) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (661/4) . السخاوي : الضوء اللامع ، (189/8) . وكانت زوجته الأولى " ست قريش بنت محمد بن عبد الله العثماني القرشي قد توفيت منذ أكثر من عشرين سنة . انظر : السخاوي : الضوء اللامع ، (173/6) .

(33) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (486/1) .

(34) في الضوء اللامع ، (431/4) : أبي القاسم ابن الماجد . والصحيح ما أورده النجم ابن فهد في الدر الكمين ، (249/1) حيث سيتضح ذلك عند ذكر شيوخ ابن عزَم .

(35) رسالة أرجوزة الولدان في الفرض والمسنون : للفقيه يحيى بن عمر بن سعدون المعروف بالقرطبي (ت567هـ/1171م)، وهي منظومة في أصول الدين (العقيدة) ، مقسمة إلى أبواب تناولت قواعد الإسلام مع شرح كل قاعدة على حدة . انظر : فهرس مخطوطات المسجد النبوي برقم 585/1 .

(36) رسالة أبي زيد القيرواني : رسالة علمية للشيخ أبي محمد أبي زيد بن عبد الله المالكي ، المشهور بمالك الصغير (ت386هـ/995م) . وهذه الرسالة من أنفع متون الفقه المالكي قاطبة ، وذلك لمكانة مؤلفها العلمية من ناحية ولسهولتها ويسرها وجمعها لأصول العقيدة والفقه والآداب من ناحية أخرى . وللرسالة شروح كثيرة . انظر : انظر : ابن العماد : شذرات الذهب ، (131/3) . كحالة : معجم المؤلفين ، (65/9) .

(37) مجلس الإملاء : في الأصل هو خاص بطلبة الحديث ، لكن كانت في الغالب مجالس رواية عامة ، وكان لهم فيها جُملة من الآداب المرعيّة والعادات الموروثة التي ينبغي أن يُعنى بها الشيخ المملي . انظر : السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ، ص25 .

(38) كتابة الطباق : الطباق هو إثبات السماع في آخر الكتاب وذلك بقولهم : " سمع فلان وفلان وفلان ... ". وكُتب الطباق هي بمثابة الكشوفات التي تسجل فيها أسماء السامعين والحاضرين في حلقات قراءة الكتب العلمية التي تتم بشكل منظم عبر أجيال متعاقبة . انظر عن تفاصيل الطباق بشكل أوسع في : تدريب الراوي للسيوطي ، (25/2) .

(39) الاستدعاءات : جمع استدعاء ؛ وهو طلب الإجازة من محدثٍ أو مسندٍ أو مؤلف ، ويكون الطلب مكتوبًا . انظر : السخاوي : فتح المغيث شرح ألفية الحديث ، (83/2) .

(40) أغلب هذه الترجمة عن نشأة المؤلف وطلبه للعلم مأخوذة من الدر الكمين ، (249/1 – 250) والضوء اللامع ، (431/4 – 432) .

(41) انظر عنه : السخاوي : الضوء اللامع ، (429/5) .

(42) انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، (142/6) . التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص196 . ابن الغزي : ديوان الإسلام ، (155/1) . إسماعيل باشا : هدية العارفين ، (792/1) . الأدنروي : طبقات المفسرين ، ص328 . كحالة : معجم المؤلفين ، (5/8).

(43) انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، (533/6) . الشوكاني : البدر الطالع ، (121/2) . إسماعيل باشا : هدية العارفين ، (194/2) . كحالة : معجم المؤلفين ، (17/9) .

(44) انظر ترجمته في : ابن حجر : إنباء الغمر ، (351/3) . ابن فهد : اتحاف الورى (310/4) . السخاوي : الضوء اللامع ، (150/4) . شذرات الذهب ، (360/6) .

(45) انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، (322/4) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص1104 . إسماعيل باشا : هدية العارفين ، (408/1) . الزركلي : الأعلام ، (8/5) . كحالة : معجم المؤلفين ، (187/7).

(46) انظر ترجمته في : ابن فهد : إتحاف الورى ، (188/4) . السخاوي : الضوء اللامع ، (431/5) .

(47) انظر عنه : السخاوي : الضوء اللامع ، (619/6) .

(48) انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، (106/4) . ابن الغزي : ديوان الإسلام ، (7/1) .

(49) انظر عنه : السخاوي : الضوء اللامع ، (12/5) .

(50) انظر ترجمته في : ابن فهد : إتحاف الورى ، (170/4) . السخاوي : الضوء اللامع ، (283/2) .

(51) انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، (338/2) . السيوطي : حسن المحاضرة ، ص270 . بغية الوعاة ، (375/1) . الشوكاني : البدر الطالع ، (185/1) . ابن العماد : شذرات ، (151/7) . الزركلي : الأعلام ، (230/1) .

(52) انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، (573/5) . السيوطي : حسن المحاضرة ، ص270 . بغية الوعاة ، (375/1) . الشوكاني : البدر الطالع ، (492/1) . ابن العماد : شذرات ، (342/7) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص34 . إسماعيل باشا : هدية العارفين ، (520/1) . الكتاني : فهرس الفهارس ، (912/2) . الزركلي : الأعلام ، (63/5) . كحالة : معجم المؤلفين ، (318/7) .

(53) انظر عنه : السخاوي : الضوء اللامع ، (43/3) .

(54) (انظر ترجمته في : السيوطي : نظم العقيان ، ص152 . العيدروس : النور السافر ، ص16 . النجم الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، (43/1) . ابن العماد : شذرات الذهب ، (15/8) . الشوكاني : البدر الطالع ، (200/2) . إسماعيل باشا : إيضاح المكنون ، (54/1) . كحالة : معجم المؤلفين ، (150/10) . الزركلي : الأعلام ، (194/6) .

(55) انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، (32/5) . العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (602/1) . جار الله ابن فهد : نيل المنى بذيل بلوغ القِرى لتكملة إتحاف الورى ، (337/1) . العيدروس : النور السافر ، ص129 . ابن العماد : شذرات الذهب ، (285/8) .

(56) السيوطي : بغية الوعاة ، (567/1) .

(57) هو محيى الدين محمد بن عليّ بن محمد بن عربي الطائي الأندلسي ، الملقب بالشيخ الأكبر (ت638هـ/1240م): شيخ الصوفية في عصره وقطب دائرتهم . كان له شطحات كفرية كادت أن تتسبّب بمقتله بمصر ففرّ إلى دمشق وعاش بها إلى وفاته . انظر ترجمته في :

ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، (241/2) . المقري : نفح الطيب ، (404/1) . ابن العماد : شذرات الذهب ، (190/5) . الزركلي : الأعلام ، (281/6) .

(58) النجم ابن فهد : الدر الكمين ، (250/1) .

(59) (السخاوي : الضوء اللامع ، (432/4) .

(60) نفس المصدر ، (127/2) .

(61) عبد العزيز السنيدي : الوراقون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي ، ص97 .

(62) السخاوي : الضوء اللامع ، (432/4) .

(63) عبد العزيز السنيدي : الوراقون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي ، ص31 .

(64) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (302/1) .

(65) ابن الديبع : بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، ص213 .

(66) عواطف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين ، ص265 .

(67) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (101/16) .

(68) عبد العزيز السنيدي : الوراقون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي ، ص93 .

(69) نفس المرجع ، ص62 .

(70) نفس المرجع ، ص32 .

(71) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (456/1) .

(72) النجم ابن فهد : الدر الكمين ، (683/1) . السخاوي : الضوء اللامع ، (107/3) .

(73) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (498/4) . السخاوي : الضوء اللامع ، (374/7) .

(74) السخاوي : الضوء اللامع ، (374/7) .

(75) ذكر هذا الكتاب المؤلف نفسه في دستور الإعلام في معرض الترجمة لأحد الأعلام التوانسة واسمه " ابن بزيزة " . انظر اللوحة [24 أ] .

(76) ذكر الكتابين النجم ابن فهد في الدر الكمين ، (251/1) . وانظر : الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ، ص165 .

(77) مخطوط محفوظ بالمكتبة الخديوية بالقاهرة بمصر ، برقم 233/3 . وانظر : الزركلي : الأعلام ، (315/6) .

(78) لعلّ الله تعالى يُيسّر للباحث إكمال كتابه عن " وقف المغاربة أو رباط الموفق " الذي هو حاليًا تحت الإنجاز .

(79) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (431/1) .

(80) النجم ابن فهد : الدر الكمين ، (251/1) . والغريب أن الشيخ عبد الملك بن دهيش رحمه الله تعالى لم يُعلّق في تحقيقه للدر الكمين على هذه الإضافة ويُبيّن أنها ليست من كلام النجم عمر لأن وفاته سابقة على وفاة المؤلف ابن عزَم .

(81) النجم ابن فهد : الدر الكمين ، (251/1) .

(82) السخاوي : الضوء اللامع ، (432/4) .

(83) السيوطي : بغية الوعاة ، (567/1) .

(84) ابن الغزي : ديوان الإسلام ، (219/2) .

(85) (زامباور : معجم الأنساب ، ص32 .
(86) المقريزي : السلوك ، (413/1) .
(87) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (529/5) .
(88) الغزي : الكواكب السائرة ، (132/1) .
(89) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ، (210/2) .
(90) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ، (507/1) .
(91) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ، ص231 .
(92) القلقشندي : صبح الأعشى ، (273/3) .
(93) جيرالد دي غوري : حكام مكة ، ص129 .
(94) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ، (610/5) .
(95) نفس المصدر ، (312/5) .
(96) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (24/4) .
(97) عُزل الشريف حسن بن عجلان ثلاث مرات ؛ سنة 811هـ/1408م ثم سنة 818هـ/1415م ثم سنة 827هـ/1423م . المقريزي : السلوك ، (113/5) .
(98) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ، (402/5) . المقريزي : السلوك ، (111/5) .
(99) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (509/4) .
(100) نفس المصدر ، (29/4) .
(101) انتقم الشريف بركات من الهذلان النازلين بوادي نخلة (جنوب مكة) لمساعدتهم وإيوائهم أخاه إبراهيم ، حيث عمل الشريف على تخريب بيوتهم وسبي نسائهم وذراريهم ! . النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (40/4) .
(102) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (41/4 – 42) .
(103) نفس المصدر ، (49/4) .
(104) نفس المصدر ، (71/4) .
(105) نفس المصدر ، (126/4) .
(106) السخاوي : الضوء اللامع ، (321/4) .
(107) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (71/4) . ابن حجر : إنباء الغمر ، (495/3) .
(108) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (145/4) . الجزيري : درر الفرائد ، ص353 .
(109) المقريزي : السلوك ، (649/4) . السخاوي : الضوء اللامع ، (45/3) . عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل في ذيل الدول ، (124/5) .
(110) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (165/4) .
(111) نفس المصدر ، (186/4) .
(112) نفس المصدر ، (188/4) .
(113) نفس المصدر والصفحة .
(114) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (178/4) .
(115) نفس المصدر ، (227/4) .
(116) نفس المصدر ، (243/4) .
(117) نفس المصدر ، (252/4) .
(118) جيرالد دي غوري : حكام مكة ، ص132 .

(119) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (481/4) . عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل في ذيل الدول ، (321/6) ، (169/7) . ابن إياس : بدائع الزهور ، (11/3) .
(120) كان القواد الأشراف كثيرًا ما يزاحمون شريف مكة في فتن السلطة وابتلاءاتها ، فقد كانوا أبناء من فروع أخرى للأسرة الحسنيّة . انظر : النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (63/1) . جيرالد دي غوري : حكام مكة ، ص95 وما بعدها .
(121) وقبلها كانت فتنة بين شريف مكة محمد بن بركات ووزيره القائد الشريف بُديد بن شكر سنة 864هـ/1459م ، حيث سعى المغرضون للفتنة بينهما وذلك ببيان أن الشريف يريد قتله . وقد تطور أمر هذه الفتنة أن نهب الشريف أموال بُديد وأموال من حالفه من الأشراف . وقد دامت عملية الصلح هذه لما يزيد عن سنتين بسبب ارتفاع القضية إلى السلطان بالقاهرة ، حيث كان الصلح الكامل في شعبان سنة 867هـ/1462م . النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (440/4) . عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل في ذيل الدول ، (89/6) .
(122) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (491/4) .
(123) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (411/1) .
(124) ابن إياس : بدائع الزهور ، (424/3) .
(125) جيرالد دي غوري : حكام مكة ، ص137 .
(126) ذكر المستشرق الإيطالي " ل. فارثيما L. Varthema " الذي زار مكة في الفترة التي كان فيها الصراع محتدمًا بين شريف مكة وأخويه قائلاً : " وصلنا مكة ، وكانت هناك حرب كبيرة ، أخ يقاتل أخاه ، كان هناك أربعة إخوة يقتتلون لكي يصبحوا أسياد مكة " . جيرالد دي غوري : حكام مكة ، ص139 .
(127) انظر عن هذه الفتنة : السخاوي : التحفة اللطيفة ، ص516 . ابن إياس : بدائع الزهور ، (418/3) . الجزيري : درر الفرائد ، ص289 . ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص321 .
(128) جيرالد دي غوري : حكام مكة ، ص132 .
(129) عليّ السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، ص58 .
(130) هيام عيسى : الحج إلى الحجاز في العصر المملوكي ، ص224 .
(131) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (86/12) .
(132) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (253/4) .
(133) نفس المصدر ، (22/4) .
(134) نفس المصدر ، (254/4) .
(135) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (412/4) . السمهودي : وفاء الوفا ، ص509 . الجزيري : درر الفرائد ، ص591 .
(136) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (20/4) .
(137) نفس المصدر ، (44/4) .
(138) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (587/1) .
(139) نفس المصدر ، (265/1) .
(140) لأهمية صدقات هذه المنطقة ؛ فقد وكّل ناظر المسجد الحرام قاضي القضاة أبو السعود ابن ظهيرة سنة 892هـ/1486م وكيلاً شرعيًا أرسله إلى القسطنطينية لجمع هذه

الصدقات المخصصة للحرمين الشريفين . انظر : العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (502/1) .
(141) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (321/1) .
(142) نفس المصدر ، (482/1) .
(143) انظر : العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (344/1) ، (356/1) .
(144) نفس المصدر ، (399/1) .
(145) نفس المصدر ، (426/1) . تجدر الإشارة إلى أنه – على سبيل المثال – كان لآل بني ظهيرة قضاة مكة أملاكًا كبيرة ناحية وادي مرّ وناحية هدّة بني جابر في ضواحي مكة ، وكانوا يسافرون ويمكثون أيامًا لتفقد هذه الاملاك الواسعة ! . انظر : العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (592/1) .
(146) انظر أمثلة عن ذلك في بلوغ القِرى للعز ابن فهد ، (639/1) .
(147) كان أكثر التجار الغرباء بمكة وجدة يوصون بجزء من أموالهم وتركتهم لقاضي قضاة الشافعية بمكة ، كالقاضي الشهير برهان الدين ابن ظهيرة خاصة . العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (286/1) .
(148) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (375/1) . السخاوي : وجيز الكلام ، (951/3) . الجزيري : الدرر الفرائد ، ص760 . ابن إياس : بدائع الزهور ، (211/3) . قلتُ : وبالرغم من مصادر الدخل الكثيرة لشريف مكة فإنه حرص على مزاحمة المحتاجين في صدقاتهم ، وعلى سبيل المثال ؛ فإنه ولأجل حماية مصادر هذا الدخل شُرّعت قوانين لذلك ، كما في مرسوم سنة 881هـ/1476م وفيه : أنه من مات بجدة ومكة ولم يكن له وارث وترك من دينار إلى ألف فيكون لشريف مكة ، وما فوق ذلك يكون للسلطان . انظر: النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (604/4) .
(149) انظر عن الرشوة في العصر المملوكي كتاب : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة) للدكتور أحمد عبد الرزاق أحمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 1979م .
(150) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (74/4) . ابن حجر : إنباء الغمر ، (152/3) . المقريزي : السلوك ، (629/4) . السخاوي : الضوء اللامع ، (214/3) .
(151) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (372/4) .
(152) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (479/1) .
(153) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (235/4) .
(154) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (46/4) .
(155) نفس المصدر ، (70/4) .
(156) لمقريزي : السلوك ، (215/4) . النجوم الزاهرة ، (373/6) .
(157) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (152/4 ، 263) .
(158) نفس المصدر ، (245/4) .
(159) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (238/1) .
(160) عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل في ذيل الدول ، (66/7) .
(161) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (366/1) .
(162) ابن تغري بردي : حوادث الدهور ، (188/2) .
(163) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (361/4) .

(164) نفس المصدر ، (165/4) .
(165) نفس المصدر ، (432/4) .
(166) النجم ابن فهد:إتحاف الورى ،(460/4).ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة ، (335/16). السخاوي : الضوء اللامع ، (15/3).ابن إياس : بدائع الزهور ، (423/2).
(167) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ، (277/2) . ابن الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ، (285/3) .
(168) ابن إياس : بدائع الزهور ، (119/3) .
(169) المقريزي : السلوك ، (539/5) .
(170) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ، (274/2) . المقريزي : السلوك ، (345/6 ، 505) ، (5/7) . ابن إياس: بدائع الزهور ، (301/3) .
(171) السخاوي : وجيز الكلام ، (931/3) .
(172) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (231/1) . عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل في ذيل الدول ، (66/7) .
(173) محمد كردي : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، (194/2 – 196) .
(174) ليس هذا فحسب بل حاول الروافض إيذاء مشاعر المسلمين كذلك ، ففي ليلة عاشوراء من سنة 832هـ/1428م وجدت نجاسة عذرة بمقام إبراهيم ، اتهم فيها هؤلاء . النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (29/4) . وذكر السنجاري (ت1125هـ/1712م) أنه : في سنة 1087هـ/1676م لُطخت الكعبة المعظمة بالعذرة من جميع جوانبها بما في ذلك الحجر الاسود والركن اليماني ، واتهم بذلك الشيعة الروافض حيث أنزل الأتراك بخمسة منهم ضربًا ورجمًا بالحجارة ثم تقطيعًا بالسيوف . السنجاري : منائح الكرم بأخبار مكة وولاة الحرم ، (291/1) .
(175) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (132/1 – 136) .
(176) القافلة الرجبية : نسبة إلى شهر رجب من كل عام حيث تخرج قوافل المعتمرين (بالنسبة لغير أهل مكة) أو الزائرين للمسجد النبوي (بالنسبة لأهل مكة) ؛ فالقافلة قد تكون مكية متوجهة إلى المدينة النبوية أو تكون مصرية تتوجه أولاً إلى المدينة النبوية ثم إلى مكة . وهذه القافلة تكون في الغالب تحت إمرة قاضي قضاة الحنابلة أو الشافعية . انظر : العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (576/1) . يجدر التنبيه هنا إلى أن تخصيص شهر رجب بعمرة أو زيارة (زيارة المسجد النبوي ثم السلام على النبيّ ﷺ ، وليس شدّ الرحل لزيارة القبر الشريف) من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان . وقد ثبت عن عمر ﷺ أنه قال : " إن ذلك كان شهرًا يعتمر فيه أهل الجاهلية فأبطله الإسلام " ، أي أبطل استحباب العمرة فيه . فتنبه . انظر : مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ، (444/9) .
(177) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (486/1) .
(178) انظر : مقدمة كتاب مخطوط الصواعق المحفوظ بمكتبة الحرم المكي الشريف ، برقم 2275/عقائد ، حيث أشار المؤلف رحمه الله تعالى في مقدمة هذه النسخة الفريدة والوحيدة إلى ما ذكرناه أعلاه . الفهرس المختصر لمخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف ، (422/1) .
(179) الساعاتي : مناهل العلم بالبلد الحرام ، ص139 .
(180) فواز الدهاس : المدارس بمكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ، ص39 .
(181) السباعي : تاريخ مكة ، (152/1) .

(182) الأزرقي : أخبار مكة ، (59/2) .
(183) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج القرشي مولاهم (ت150هـ/767م) . كان فقيه الحرم المكي وإمام الحجاز في عصره ، وهو أول من صنف التصانيف العلمية بمكة . انظر : الذهبي : تذكرة الحفاظ ، (200/1) .
(184) عليّ السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، ص238.
(185) نفس المرجع ، ص240 .
(186) الساعاتي : مناهل العلم بالبلد الحرام ، ص141 .
(187) النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص198 .
(188) هيام عيسى : الحج إلى الحجاز في العصر المملوكي ، ص335 .
(189) الساعاتي : مناهل العلم بالبلد الحرام ، ص26 – 32 .
(190) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (25/4) .
(191) السخاوي : الضوء اللامع ، (94/7) .
(192) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (66/4) .
(193) الساعاتي : مناهل العلم بالبلد الحرام ، ص32 .
(194) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (64/4 ، 471) .
(195) ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، (285/1) .
(196) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (528/4) .
(197) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ، (372/4) .
(198) فواز الدهاس : المدارس بمكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ، ص24 .
(199) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (436/4) .
(200) العصامي : سمط النجوم العوالي ، (44/4) .
(201) النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص178 .
(202) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ، (351/1) .
(203) (النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (433/4) .
(204) العز ابن فهد : غاية المرام ، (506/2) .
(205) السخاوي : الضوء اللامع ، (511/7) .
(206) نفس المرجع ، ص27 .
(207) فواز الدهاس : المدارس بمكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ، ص28 .
(208) الساعاتي : مناهل العلم بالبلد الحرام ، ص141 .
(209) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (587/1) .
(210) نفس المصدر ، (492/1) .
(211) القلقشندي : صبح الأعشى ، (521/5) .
(212) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ، (319/2) .
(213) القلقشندي : صبح الأعشى ، (291/5) .
(214) عليّ السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، ص140 .
(215) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ، (190/3) .
(216) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (183/4) .
(217) المقريزي : السلوك ، (119/5) .
(218) ابن حجر : إنباء الغمر ، (157/7) .

(219) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (382/4) .
(220) ابن العماد : شذرات الذهب ، (148/7) .
(221) السخاوي : الضوء اللامع ، (271/7) . وجيز الكلام ، (665/3) .
(222) الصفدي : الوافي بالوفيات ، (14/3) .
(223) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ، (99/3) .
(224) ابن غازي : إفادة الأنام ، (342/6) .
(225) السخاوي : الضوء اللامع ، (412/8) .
(226) ابن العماد : شذرات الذهب ، (177/7) .
(227) السخاوي : الضوء اللامع ، (293/5) .
(228) ابن العماد : شذرات الذهب ، (74/8) .
(229) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (72/4) .
(230) المعلمي : أعلام المكيين ، (974/2 – 990) .
(231) ابن غازي : إفادة الأنام ، (345/6) .
(232) السخاوي : نظم العقيان ، ص17 .
(233) عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل في ذيل الدول ، (49/8) .
(234) المعلمي : أعلام المكيين ، (85/1 – 117) .
(235) المعلمي : أعلام المكيين ، (114/1) .
(236) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (64/1) . السخاوي : الضوء اللامع ، (264/6) . الغزي : الكواكب السائرة ، (122/1) . ابن العماد : شذرات الذهب ، (36/8) . العيدروس : النور السافر ، ص47 .
(237) العناقرة : الحياة الاقتصادية في الحجاز في عصر دولة المماليك ، ص55 .
(238) نفس المرجع ، ص31 .
(239) الكارم أو الكارمية : هم مجموعة من كبار التجار الذين عملوا في تجارة التوابل الهندية . وقد قيل أن اسم الكارم مشتق من كلمة " كانم " بالسودان الغربي ، وقيل إن الاسم مشتق من نوع من التوابل هو الحبهان . القلقشندي : صبح الأعشى ، (282/4) . شوقي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، ص269 .
(240) محمد الأشقر : تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي ، ص312 .
(241) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (289/4) .
(242) المقريزي : السلوك ، (387/5) .
(243) أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها التجارية (301هـ – 487هـ) ، ص152 .
(244) العناقرة : الحياة الاقتصادية في الحجاز في عصر دولة المماليك ، ص81 .
(245) الادريسي : نزهة المشتاق ، (203/1) .
(246) ابن جُبير : رحلته المعروفة بالتذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار ، ص140 .
(247) عليّ السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، ص172.
(248) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، (295/5) . العناقرة : الحياة الاقتصادية في الحجاز في عصر دولة المماليك ، ص98 .
(249) (249) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص14 .
(250) نعيم فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، ص139 .

(251) عليّ السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، ص193 .
(252) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص26 .
(253) الحميري : الروض المعطار ، ص112 .
(254) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (484/1) .
(255) نفس المصدر ، (423/1) .
(256) أنشأت وظيفة " نظر جدة " سنة 827هـ/1425م في عهد السلطان الأشرف برسباي ، وذلك منذ أن حلّت جدة محلّ عدن سنة 825هـ/1421م في استقبال سفن التجارة الهندية . وكانت مهمة ناظر جدة هو تحصيل الضرائب التجارية على البضائع الهندية واليمنية المارة بميناء جدة ثم القفول عائدًا إلى القاهرة ، ثم مع الزمن تحولت هذه الوظيفة من طابعها المدني إلى الطابع العسكري . المقريزي : السلوك ، (509/4) . القلقشندي : صبح الأعشى ، (315/5) .
(257) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (219/4) .
(258) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (125/9) .
(259) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (80/4) .
(260) ولهذا السبب فقد صادر الشريف حسن بن عجلان سنة 826هـ/1422م فلفل التجار الواصلين إلى جدة من الهند وقد هدّده السلطان على فعلته فلم يهتمّ . النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (248/4) .
(261) ابن حجر : إنباء الغمر ، (248/4) .
(262) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (82/4) .
(263) نفس المصدر ، (316/4) . الجزيري : درر الفرائد ، ص425 .
(264) العز ابن فهد : بلوغ القِرى ، (395/1) . غاية المرام ، (547/2) .
(265) النجم ابن فهد : إتحاف الورى ، (145/4) . المقريزي : السلوك ، (909/4) .
(266) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ، (462/2) .
(267) ابن العماد : شذرات الذهب ، (125/7) .
(268) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ، (385/3) .
(269) نفس المصدر ، (120/6) .
(270) السخاوي : الضوء اللامع ، (277/2) .
(271) نفس المصدر ، (106/6) .
(272) يقول ابن جُبير : " وكان من لم يؤد المكس من الحجاج القادمين إلى ثغر جدة يعاقب بأنواع شتى من العقوبات ، مثل التعليق من الأنثيين وغير ذلك من الأمور الشنيعة " . انظر : ابن جُبير : رحلته المعروفة بالتذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار ، ص28 .
(273) عليّ السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، ص162 .
(274) المقريزي : السلوك ، (59/2) . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (281/8) عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل في ذيل الدول ، (114/5) (275) ابن جُبير : رحلته المعروفة بالتذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار ، ص49 .
(275) المقريزي : السلوك ، (59/2) .
(276) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (93/9) .
(277) المجاورون : هم من قدم مكة خاصة – والمدينة بشكل أقلّ – من بلاد الإسلام الشاسعة بقصد الحجّ ثم استقرّ بها واختلط بأهلها ولكن لم يندمج كليًا في المجتمع المكي . ولقد كان

أكثر المجاورين من العلماء والعباد والتجار ، وإن كانت هذه الكلمة ارتبطت بالعلماء وطلبة العلم أكثر من غيرها . ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص78 .

(278) عليّ السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، ص231 .

(279) عبد العزيز السنيدي : المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (570هـ - 660هـ/1174م - 1261م) ، ص3 .

(280) ابن منظور : لسان العرب ، مادة " جور " ، (153/4) .

(281) عبد العزيز السنيدي : المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية ، ص82 .

(282) الساعاتي : مناهل العلم بالبلد الحرام ، ص140 .

(283) لقد كان للمجاورين دور بارز في دعم المكتبات المختلفة في مكة من خلال التصنيف أو وقف الكتب أو الحرص على اقتنائها أو القيام بأعمال الوراقة المختلفة . عبد العزيز السنيدي : المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية ، ص85 .

(284) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ، ص95 .

(285) انظر المقدمة من هذا التحقيق ، عند ذكر شيوخ المؤلف .

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة :

- ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي المصري (ت930هـ/1524م) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، (د.ط) ، 1374هـ/1954م .
- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت874هـ/1469م) : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1413هـ/1992م .
- ابن جُبير : أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني (ت614هـ/1217م) : رحلته المعروفة بـــالتذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار ، دار صادر ، بيروت ، (د.ط) ، 1400هـ/1980م .
- ابن حجر : أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن عليّ العسقلاني (ت852هـ/1449م) : الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق : عليّ محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط1، 1412هـ/1992م .
  - إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ، تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1406هـ/1986م .
- ابن الديبع : عبد الرحمن بن عليّ بن محمد الشيباني (ت944هـ/1537م) : بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، مركز الدراسات اليمانية ، صنعاء ، (د.ط) ، 1979م .
- ابن شاكر : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ت764هـ/1362م) : فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1973م .
- ابن شاهين : زين الدين عبد الباسط بن خليل الظاهري (ت920هـ/1514م) : نيل الأمل في ذيل الدُّول، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1422هـ/2002م .
- ابن الصيرفي : عليّ بن داود الجوهري (ت900هـ/1494م) : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان ، تحقيق: حسن حبشي ، دار الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 1970م .
- ابن ظهيرة : نور الدين محمد بن جار الله محمد بن أبي بكر المكي (ت960هـ/1553م) : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، المكتبة الشعبية ، بيروت ، ط5 ، 1399هـ/1979م .
- ابن عبد البرّ : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي (ت463هـ/1070م) : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1412هـ .
- ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت1089هـ/1678م) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط1 ، (د.ت) .
- ابن الغزي : أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن (ت1167هـ/1753م) : ديوان الإسلام ، تحقيق : سيّد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1411هـ/1990م .
- ابن فهد : نجم الدين عمر بن محمد بن محمد الهاشمي المكي (ت885هـ/1481م) : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق : د. عبد الكريم عليّ الباز ، معهد

البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة ، ط1 ، 1408هـ/1988م .
– الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق : عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، دار خضر، بيروت ، ط1 ، 1421هـ/2000م .

- ابن فهد : أبو فارس العزّ عبد العزيز بن عمر بن محمد الهاشمي المكي (ت922هـ/1517م) : بلوغ القِرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق ودراسة : صلاح الدين خليل إبراهيم وعبد الرحمن حسين أبو الخيور وعليان عبد العالي المحلبدي ، دار القاهرة ، القاهرة ، ط1 ، 1425هـ/2005م .
- ابن فهد : جار الله محمد بن عبد العزيز بن عمر الهاشمي المكي (ت954هـ/1547م) : نيل المنى بذيل بلوغ القِرى لتكملة إتحاف الورى ، تحقيق : د. محمد الحبيب الهيلة ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ط1 ، 1420هـ/2000م .
- أحمد : د. عبد الرزاق أحمد : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة) ، الهيئة المصؤية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 1979م .
- الإدريسي : محمد بن محمد (ت560هـ/1164م) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، دار عالم الكتب ، بيروت، ط1 ، 1409هـ/1989م .
- الأدنروي : أحمد بن محمد : طبقات المفسرين ، تحقيق : سليمان بن صالح الخزي ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ، ط1 ، 1997م .
- الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت244هـ/858م) : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس ، دار الثقافة ، مكة ، ط4 ، 1403هـ/1983م .
- الأشقر : محمد عبد الغني : تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 1999م .
- بروكلمان : كارل : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة : عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1382هـ/1962م .
- البغدادي : إسماعيل باشا بن محمد أمين الباباني (ت1339هـ/1920م) : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون والفنون ، دار العلوم الحديثة ، بيروت ، لبنان، (د.ط) ، (د.ت).
– هدية العارفين عن أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1402هـ/1982م.
- التقيّ الفاسي : أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد المكي الحسني (ت832هـ/1428م) : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، ج1 تحقيق : محمد حامد الفقي ، ج2 – 7 تحقيق : فؤاد السيّد ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ط1 ، 1378هـ .
– شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق : لجنة من كبار العلماء والأدباء ، دار الكتب العلمية ، بيروت، (د.ط) ، (د.ت) .
- التنبوكتي : أحمد بابا بن أحمد التكروري (ت1036هـ/1626م) : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تحقيق : طلاب من كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس الغرب ، ليبيبا ، ط1 ، 1989م .

- التونكي : محمود حسن خان المولوي الهندي (ت1366هـ/1947م) : معجم المصنفين ، مطبعة وزنكوغراف طبارة في بيروت سوريا سنة 1344هـ ، عن طبعة حيدرآباد الهند سنة 1330هـ .
- الجزيري : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصاري (ت977هـ/1569م) : درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة ، تحقيق : حمد الجاسر ، دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة ، الرياض ، ط1 ، 1403هـ/1983م .
- حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني (ت1067هـ/1656م) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، بيروت ، ط1 ، 1402هـ/1982م .
- الدهاس : فواز عليّ جنيدب : المدارس بمكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ، دار القاهرة ، القاهرة ، ط1 ، 2006م .
- دي غوري : جيرالد : حكام مكة ، ترجمة : رزق الله بطرس ، مراجعة وتعليق : د. صباح جمال الدين ، مكتبة الوراق ، بيروت ، ط2 ، 2012م .
- زامباور : إدوارد فون : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، إخراج زكي محمد حسن وحسن أحمد ، مطبعة فؤاد ، القاهرة ، (د.ط) ، 1951م .
- الزركلي: خير الدين بن محمود : الأعلام ؛ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1401هـ/1980م .
- الزيلعي : أحمد عمر : مكة وعلاقاتها التجارية (301هـ - 487هـ) ، عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ط1 ، 1981م .
- الساعاتي : فوزي محمد عبده : مناهل العلم بالبلد الحرام وأعلام المكيات خلال العصر المملوكي 648هـ - 923هـ/1250م - 1517م ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ، مكة ، ط1 ، 1430هـ/2009م .
- السباعي : أحمد : تاريخ مكة ، نادي مكة الثقافي ، مكة ، ط6 ، 1404هـ/1984م .
- السخاوي : أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد المصري (ت902هـ/1496م) :
  - التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، (د.ط) ، 1376هـ/1959م .
  - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .
  - فتح المغيث شرح ألفية الحديث ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1403هـ .
  - وجيز الكلام في الذيل على كتاب الذهبي دول الإسلام ، تحقيق : بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني وأحمد الخطيمي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1416هـ/1995م .
- سركيس : يوسف إليان موسى : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، مطبعة سركيس ، القاهرة ، (د.ط) ، 1346هـ/1928م .

- السليمان : عليّ بن حسين : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، جامعة القاهرة ، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 1393هـ/1973م.
- السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت562هـ/1166م) : أدب الإملاء والاستملاء ، شرح ومراجعة: سعيد مجمد اللحام ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط1 ، 1409هـ/1989م .
- السنجاري : عليّ بن تاج الدين بن تقي الدين المكي الحنفي (ت1125هـ/1713م) : منائح الكرم بأخبار مكة والبيت وولاة الحرم ، تحقيق : جميل عبد الله المصري ، مركز إحياء التراث الإسلامي ، جامعة ام القرى مكة ، ط1، 1419هـ/1998م .
- السنيدي : د. عبد العزيز بن راشد : المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (570هـ - 660هـ/1174م - 1261م) ، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية سنة 1426هـ ، (المحور الثالث) الحركة العلمية والثقافية في مكة المكرمة .
  - الوراقون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي ، الطائف ، ط1 ، 1425هـ .
- السيوطي : أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ/1505م) :
  - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، 1384هـ/1964م .
  - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض، ط2 ، 1419هـ.
  - نظم العقيان في أعيان الأعيان ، تحقيق : فليب حتّي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1413هـ .
- الشوكاني : محمد بن عليّ بن محمد اليمني (ت1250هـ/1834م) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة، القاهرة ، (د.ط) ، 1348هـ .
- الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين (ت873هـ/1468م) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس ، ط1 ، 1894م .
- عثمان : شوقي عبد القوي : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، عالم المعرفة ، الكويت ، ط1 ، 1414هـ/1990م.
- العصامي : عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (ت1111هـ/1699م) : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ط1 ، 1380هـ.
- العناقرة : محمد محمود خلف : الحياة الاقتصادية في الحجاز في عصر دولة المماليك 648هـ - 923هـ/1250م - 1517م ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ط1 ، 1425هـ .
- العيدروس : محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله اليمني (ت1038هـ/1628م) : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1405هـ .

- عيسى:هيام :الحج إلى الحجاز في العصر المملوكي(648هـ- 923هـ/1250-1517م)،دار المشرق ، بيروت ،ط1 ،2012م .
- الغزي : نجم الدين محمد بن محمد بن محمد الدمشقي (ت1061هـ/1650م) : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، تحقيق : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1418هـ/1997م .
- فهمي : نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 1973م .
- القلقشندي : أبو العباس أحمد بن عليّ المصري (ت831هـ/1418م) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الطبعة الأميرية ، القاهرة، (د.ط) ، 1333هـ/1915م .
- الكتاني : عبد الحيّ بن عبد الكبير الحسني (ت1382هـ/1962م) : فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1982م .
- كحالة : عمر رضا : معجم المؤلفين ؛ تراجم مصنفي الكتب العربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1414هـ/1993م .
- كردي : محمد طاهر : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، إشراف : عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، مكتبة الأسدي ، مكة المكرمة ، ط3 ، 1425هـ .
- المحبي : محمد أمين بن فضل الله بن محب الله الدمشقي (ت1111هـ/1699م) : نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق : أحمد عناية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1426هـ/2005م .
- المرادي : محمد خليل بن علي بن محمد الدمشقي (ت1206هـ/1791م) : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، دار ابن حزم ، دمشق ، ط 3 ، 1408ه/1988م .
- المعلمي : عبد الله : أعلام المكيين (من القرن التاسع إلى القرن الرابع الهجري) ، جمع وتصنيف ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، فرع موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ط1 ، 1421هـ/2000م .
- المقرّي : أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت1041هـ/1631م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، (د.ط) ، 1968م .
- المقريزي : تقي الدين أحمد بن عليّ (ت845هـ/1461م) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1418هـ/1997م .
- النهروالي : محمد بن أحمد بن محمد المكي (ت990هـ/1581م) : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تعليق : محمد طاهر الكردي ، المكتبة العلمية ، مكة ، ط2 ، 1370هـ/1950م
- نواب : عواطف محمد : الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين ؛ دراسة تحليلة مقارنة ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، ط1 ، 1996م .

- الهيلة : محمد الحبيب : التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، مكة ، ط1 ، 1994م .
- ياقوت الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت626هـ/1228م) : معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1411هـ/1991